

دكتور
عَامِرُ النُّجَّار



نظرات في فكر الغزالي

الناشر
شركة الصفا
للطباعة والترجمة والنشر

نظرات في فكر الغزالي

تأليف
دكتور
عامر النجار

الناشر
شركة الصفا
للطباعة والترجمة والنشر
٣٤ شارع عبد الحلق ثروت شقة ١

الإهداء
إلى روح عالمنا الجليل
أستاذنا الإمام الدكتور عبد الخليم
محمود

أهدي هذا العمل راجيا من الله تعالى
أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه
الكريم وأن يكون من العلم الذي ينتفع
به بعد أن تنقطع الأعمال بالموت اللهم
آمين

عاصر النجار

GEORGETOWN UNIVERSITY
LIBRARIES

FEB 26 1990

رقم الابداع ١٩٨٩/٢٧٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ أكثر من تسعة قرون من الزمان كان مولد الإمام الغزالي رضى الله عنه الذى عاش حياته مفكرا إسلاميا ثرى العطاء ، متوقد الذهن ، أحدث بروحه وعقله ثورة عظيمة فى مجال الفكر الإسلامى والفلسفة والتصوف .

وكان هدفه البحث عن الحقيقة ، ووضح صدقه من خلاله قوله «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور رأبى وديدنى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى . عزيزة وفطرة من الله ، وضعتا فى جبلتى ، لا باختيار وحيلتى » .

وكان مطلوبه العلم الحقيقى «إنما مطلوبى أن العلم بحقائق الأمور . فلا بد من طلب حقيقة العلم . ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا

«المبحث الأول»

الغزالي وتلاميذه وأهم كتبه

١ تعريف بالغزالي :

الغزالي هو بحق كما وصفه مكدونالد يُعدّ من أعرق المفكرين المسلمين أصالة وأعظم الحكمين المسلمين إطلاقا .

وهو - لاشك عندنا - مجدد القرن الخامس الهجري بلا منازع .

فإذا كان في المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ، وفي الثانية الشافعي وفي الثالثة الأشعري ، أو ابن سريج وفي الرابعة الاسفراييني أو الباقلاني فإن في الخامسة حجة الإسلام وزين الدين الإمام الغزالي رضي الله عنه .

قال إمام الحرمين عن تلميذه الغزالي «الغزالي بحرٌ مغدق»

وقال الإمام «محمد بن يحيى» تلميذ الغزالي : «الغزالي لا يعرف فضله إلا من بلغ ، أو كاد يبلغ الكمال في عقله» .

وقال ابن النجار عن الغزالي : «إمام الفقهاء على الإطلاق ، ورياني الأمة بالاتفاق ، ومجاهد زمانه ، وعين وقته وأوانه ، ومن شاع ذكره في البلاد ، واشتهر فضله بين العباد ، واتفقت الطوائف على تبيجيله وتعظيمه ، وتوقيره وتكرمه . وخاف المخالفون وأنقهر بحججه وأدلته المناظرون ، وظهرت بتنقيحاته فضائح المبتدعة والمخالفين ، وقام بإظهار السنة ونصر الدين ، وسارت مصنفاة في الدنيا ، مسير الشمس في البهجة والجمال ، وشهد له المخالف والموافق ، بالتقدم والكمال» .

تسع القلب لتقدير ذلك . بل الأمان من الخطأ نبغى أن يكون مقارنا لليقين «مقارنة لو تحدى إظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهباً والعصا نعبانا ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً» .

وهكذا افتح الإمام الغزالي الباب أمام العقل المستنير بروح البصيرة ليصل إلى العلم الصحيح .

وهذه نظرات في فكر الغزالي عايشتها وعشتها في رحاب عقل حجة الإسلام . . . وقد تضمنت هذه النظرات إلقاء الضوء على بعض مؤلفاته وهي "إحياء علوم الدين" و "مشكاة الأنوار" و "الكيمياء السعادة" . وبحث مشكلة اليقين عند الغزالي .

هذا . . . وبالله التوفيق والسداد .

عامر النجار

الآفاق ، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت الحال به إلى أن رسم
للمصير إلى «بغداد» للقيام بتدريس «المدرسة الميمونة النظامية» بها
فصار إليها وأعجب الكل تدرسه ، ومناظرته ، وما لقي مثل نفسه ،
وصار بعد أمانة «خراسان» امام «العراق» .

ثم نظر في علم الأصول ، وكان قد أحكمه ، فصنف فيه تصانيف
وجدد المذهب في الفقه فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه
أيضا تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته في «بغداد» حتى كانت تغلب
حشمة الأكابر والأمراء ، ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه آخر .

وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة ، وممارسة الكتب المصنفة
فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك الحشمة ، وطرح ما نال من
الدرجة ، للاشتغال بأسباب التقوى ، وزاد الآخرة .

فخرج عما كان فيه ، وقصد بيت الله ، وحج ثم دخل الشام وأقام
في تلك الديار قريبا من عشر سنين يطوف ويزور المشاهد المعظمة ،
وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل «أحياء علوم
الدين» والكتب المختصرة منه ، مثل «الأربعين» وغيرها من الرسائل
التي من تأملها علم محل الرجال من فنون العلم .

وأخذ في مجاهدة النفس ، وتغيير الأخلاق ، وتحسين الشمانل ،
وتهذيب المعاش فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ،
والتخلق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس وكرم الأخلاق ، والفراغ عن
الرسوم والترتيبات وتزيا بزي الصالحين وقصر الأمل ، ووقف الأوقات
على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعينهم من أمر الآخرة وتبغيض
الدنيا والاشتغال بها على السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار
الباقية والانتقباد بكل من يتوسم فيه ، أو يشم منه رائحة المعونة أو
التيقظ بشئ من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان .

ثم عاد إلى وطنه ، ملازما بيته ، مشتغلا بالتفكير ، ملازما

ومن أفضل من عرفنا بالغزالي عيد الغافر الفارسي خطيب نيسابور
وكان من الثقة المعاصرين وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر كلام
عيد الغافر الفارسي عن الإمام الغزالي فقال : قال : «أبو الحسن عيد
الغافر بن اسماعيل الخطيب الفارسي خطيب نيسابور : محمد بن محمد
بن محمد : أبو حامد الغزالي ، حجة الاسلام والمسلمين إمام أئمة
الدين : «لم تر العيون مثله لسانا وبيانا ، ونطقا وخاطرا ، وذكاء
وطبع ، أخذ طرفا في صباه «طوس» من الفقه على «الإمام أحمد
الراذكاني» ثم قدم «نيسابور» مختلفا الى درس «إمام الحرمين» في
طائفة من الشبان من «طوس» وجد واجتهد ، حتى تخرج في مدة
قريبة ، وبز الأقران ، وحمل القرآن وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه
في أيام «إمام الحرمين» وكان الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ،
ويرشدهم ، ويجتهد في نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في
التصنيف .

وكان الإمام مع علو درجته ، وسمو عبارته ، وسرعة جريه في النطق
والكلام لا يصغى نظره إلى الغزالي سرا ، لإبائه عليه في سرعة العبارة
، وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف ، وإن كان متخرجا به ،
منتسبا إليه ، كما لا يخفى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التبعج به ،
والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضره ، ثم بقي كذلك انقضاء أيام
الامام .

فخرج من «نيسابور» وصار إلى «العسكر» واحتل من «نظام
الملك» محل القبول وأقبل عليه «الصاحب» لعلو درجته وظهور اسمه ،
وحسن مناظرته ، وجري عبارته .

وكانت تلك الحضرة محط رجال العلماء ، ومقصد الأئمة
والفصحاء ، فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة ، من الاحتكاك بالأئمة
وملاقة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه في

الرجل أفاق بعد الجنون .

وحكى لنا فى ليال ، كيفية أحواله ، من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله وغلبة الحال عليه ، بعد تبحره فى العلوم ، واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذى خصه الله به فى تحصيل أنواع العلوم ، وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم العربية عن المعاملة ، وتفكر فى العاقبة ، وما يجدى وما ينفع فى الآخرة .

فابتدأ بصحبة «الفارمدى» وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وامثل ما كان يشير به عليه من القيام يوظائف العبادات ، والامعان فى النوافل ، واستدامة الأذكار ، والجهد والاجتهاد طلبا للنجاة ، إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكلف تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض فى الفنون وعادو الجد والاجتهاد فى كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها ، حتى انفتح له أبوابها .
وبقى مدة فى الوقائع ، وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل .

ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف ، بحيث شغله عن كل شئ ، وحمله على الاعراض عما سواه حتى سهل ذلك ، وهكذا ... وهكذا ... إلى أن ارتاض كل الرياضة وظهرت له الحقائق وصار ما كنا نظن به ، تمرسا وتخلقا ، طبعيا وتحققا ، وأن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله .

ثم سألناه عن كيفية رغبته فى الخروج من بيته ، والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر «نيسابور» فقال معتذرا عنه :

(ما كنت أجوز فى دينى ، أن أقف عن الدعوة ، ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق على أن أبوح بالحق ، وأنطق به وأدعو إليه) .

وكان صادقا فى ذلك .

للوقت ، مقصودا تقيا وذخرا للقلوب ، لكل من يقصده ويدخل عليه إلى أن أتى على ذلك مدة ، وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ، لا اعتراض لأحد على أمره ، حتى انتهت نوبة الوزارة إلى «الأجل» ، فخر الملك ، جمال الشهداء» تغمد الله برحمته وتزينت «خراسان» بحشمته ودولته .

وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي ودرجته ، وكمال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته ، فتبرك به ، وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه أن لا يبقى أنفاسه وفوائده عقيمة ، لا استفادة منها ، ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح ، وشدد فى الاقتراح إلى أن أجاب إلى الخروج وحمل إلى «نيسابور» وكان الليث غائبا عن عرينه والأمر خافيا فى مستور قضاء الله ومكنونه .

فأشير عليه بالتدريس فى «المدرسة الميمونة النظامية» عمرها الله ، فلم يجد بدا من الإذعان لمولاه ، ونوى إظهار ما اشتغل به هداية السراة ، وإفادة القاصدين دون الرجوع إلى ما انخلع عنه ، وتحرر عن رقه من طلب الجاه ، وممازاة الأقران ، ومكابرة المعاندين .

وكم قرع عصاه بالخلاف ، الوقوع فيه ، والظعن فيما بذره ويأتيه و السعاية به والتشنيع عليه ، فما تأثر به ، ولا أشتغل بجواب الطاعنين ، ولا أظهر استيحاشا بغميزة المخلطين .

ولقد زرت مرارا ، وما كنت أحدث فى نفسى ما عهدته فى سالف الزمان عليه ، من الزعارة وإيحاش الناس ، والنظر إليهم بعين الإزدراء ، والاستخفاف بهم كبرا وخيلاء ، واغترارا بما رزق من البسطة فى النطق والمخاطر والعبارة ، وطلب الجاه والعلو فى المنزلة .

إنه صار على الضد وتصفى عن تلك الكدورات ، وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف ، متمين بما صار إليه .

فتحقق بعد التروى والتنقيير أن الأمر على خلاف المظنون ، وأن

ثم ترك ذلك قبل أن يترك ، وعاد إلى بيته ، واتخذ في جواره «مدرسة» لطلبة العلم ، «وخانقاه للصوفية» وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين ، من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه عن فائدة ، إلى أن أصابه عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كريم جواره ، بعد مقاساة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم . والسعى به إلى الملوك . وكفاه الله وحفظه وصاته من أن تنوشه أيدي المنكبات ، أو ينتهك ستر دينه بشئ من الزلات .

وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين : «البخارى» و«مسلم» اللذين هما حجة الإسلام ، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن ، بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله ، ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية ، واشتغل إلى آخر عمره بسماعها ، ولم تتفق له الرواية .

ولا ضير فما خلفه من الكتب المصنفة في الأصول والفروع وسائر الأنواع ، تخلد ذكره وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها ، أنه لم يخلف مثله بعده .

مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ودفن بظاهر «قصبة طابران» والله تعالى يخصصه بأنواع الكرامة في آخرته ، كما خصه بفتون العلم في دنياه ، بمنه .

ولقد كان الغزالي مصلحا اجتماعيا من الدرجة الأولى ، حاول أن يعرف أمراض المجتمع ليصلحها فلقد كانت النفوس خربة والضماير مفقودة ، والأخلاق معدومة «ففلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلى وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ،

وفلان يأكل أمدار السلطان ولا يحترز عن الحرام وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جرا إلى أمثاله» (١) وهذا هو الذي دعاه إلى ضرورة نشر العلم بعد إعراضه عن ذلك .

«فانقذ ذلك في نفسى أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك» (٢) .

ونقل في الشذرات قول الأسنوى في طبقاته «الغزالي إمام ، باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس ، ويرسمه تفتخر المحابر ، وتهتز الطروس ، ويسماعه تخضع الأصوات وتخضع الرؤوس ، ولما نفذ من صديق أبيهما ما خلفه الوالد له ولأخيه أحمد ، وتعذر عليه القوت فقال : لكما أن تلجأ إلى المدرسة ، قال الغزالي ، فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت ، فاشتغل بها مدة ، ثم ارتحل إلى أبي نصر الاسماعيلي بجرجان ثم إلى إمام الحرمين بنيسابور ، فاشتغل عليه ولازمه ، حتى صار أنظر أهل زمانه وجلس للإقراء في حياة امامه وصنف ، وينسب إليه شعر ، فمن ذلك ما نسبته إليه ابن السمعاني ، في الذيل ، والعماد الأصبهاني في الخريدة :

حلت عقارب صدغه في خده قمرا ، فجعل به عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها فمن العجائب كيف حلت فيه
وأنشد العماد له أيضا :

هبنى صبوت كما ترون بزعمكم وحظيت منه بلثم ثغر أزهري
انى اعتزلت فلا تلوّموا أنه أضحى يقابلنى بوجه أشعري
فلما مات إمامه خرج إلى العسكر ، وحضر مجلس نظام الملك ، وكان مجلسه محط رجال العلم ، ومقصد الأئمة ، ومجارات الخصوم

(١) ، (٢) المنقذ من الضلال للغزالي .

اللد ، ومناظرة الفحول ، ومناظرة الكبار ، فأقبل عليه نظام الملك ، وحل منه محلا عظيما ، فعظمت منزلته وطار اسمه في الآفاق ، وندب للتدريس بنظامية بغداد سنة أربع وثمانين واربعمائة ، فقدمها في مجمل كبير وتلقاه الناس ونفذت كلمته ، وعظمت حشمته ، حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء وضرب به المثل ، وشدت إليه الرحال ، إلى أن شرفت نفسه عن رزائل الدنيا فرفضها وأطرحها ، وأقبل على العبادة والسياسة ، فخرج إلى الحجاز ، في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، فحج ورجع إلى دمشق ، واستوطنها عشرين سنين وصنف فيها كتباً ، يقال : إن «الإحياء» منها ، ثم صار إلى القدس والاسكندرية ، ثم عاد إلى وطنه بطوس ، ليقبل على التصنيف والعبادة ، وملازمة التلاوة ونشر العلم ، وعدم مخالطة الناس ، ثم إن الوزير فخر الدين ابن نظام الملك حضر إليه وخطبه إلى نظامية نيسابور ، وألح عليه كل الإلحاح ، فأجاب إلى ذلك ، وأقام عليه مدة ، ثم تركه وعاد إلى وطنه ، على ما كان عليه ، واجتنى إلى جواره خاتمة للصوفية ، ومدرسة للمشتغلين ، ولزم الانقطاع ، ووظف أوقاته على وظائف الخير ، بحيث لا يمضي لحظة منها إلا في طاعة من التلاوة والتدريس ، والنظر في الأحاديث ، خصوصا البخاري ، وإدامة الصيام والتهجد ، ومجالسة أهل القلوب إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى ، وهو البركة الشاملة ، وروح أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن ، يتقرب بحبه إلى الله تعالى ، ولا يبعثه إلا ملحد أو زنديق ، وقد أنفرد في ذلك العصر عن أعلام الزمان (انتهى كلام الأستوي).

وكان جريئا في الحق ، وكلمة صدق قوية تهتز لها عروش الحكام .

وفي رسائل الإمام الغزالي بالفارسية . قال الغزالي : لسنجر ابن ملك شاه السلاجوقي حاكم خراسان «أسفا .. إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية» .

كما كتب لأخيه الأكبر محمد بن ملك شاه رسالة خطيرة قوية حثه فيها على ضرورة الإصلاح ، والخوف من المنتقم الجبار ، يوم لا ينفع مال ولا بتون يوم البطش العظيم .

ورسالته إلى فخر الملك ضمن رسائله الفارسية رسالة قوية بليغة يقول فيها :

«اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خرابا بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناس توجعهم من «اسفرائين» و «دامغان» خافوا ، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب ، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم ، لما كانوا يتوقعون من انصاف منك ، واستطلاع للأحوال ونشاط في الإصلاح . أما وقد وصلت إلى «طوس» ولم ير الناس شيئا فقد زال الخوف وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والإحتكار ، وتشجع الظالمون ، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك ، فاعلم أنه عدو دينك ، واعلم أن دعاء أهل «طوس» بالخير والشر مجرب ، وقد نصحت للعميد كثيرا ، ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبح عبرة للعالمين ونكالا للآخرين . اعلم يا فخر الملك ! أن هذه الكلمات لاذعة مرة قاسية لا يجزؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء فاقدروها قدرها ، فانك لا تسمعها من غيري ، وكل من يقول غير ذلك ، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق» .

وفي رسائل الإمام الغزالي الفارسية يجأر الإمام بالشكوى إلى الله تعالى «لقد بلغت المدة العظم ، وبلغ السيل الزبي ، وكاد المسلمون يستأصلون ، وإن ما قسمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد - أمانة من الملك - أخذوا اضعافها من الرعية وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس ، ولم يصل منها شيء إلى السلطان» .

وهذا كله يدلنا على مبلغ جرأته في الحق .

٢ تلاميذ الغزالي :

كانت مدرسة الغزالي الكبرى تضم بين جنباتها عشرات التلاميذ النجباء ، أسماؤهم المضيئة أشرقت في كتب الطبقات وكتب التاريخ وغيرها من المؤلفات التي تحدثت عن حجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه . كذلك نجد بعض هذه الأسماء الوضيئة في أتحاف السادة المتقين ، في شرح إحياء علوم الدين « للسيد مرتضى الزبيدي وفي كتاب الدكتور أحمد الرفاعي عن الغزالي .

ومن تلاميذ الغزالي (١) أبو النصر أحمد بن عبدالله ابن عبد الرحمن الحمقدي . نسبة إلى بلد يدعى «خمس قدي» وهو المعروف باسم شيخ ربه ، ولد سنة ست وستين وأربع مائة وتفقه بطوس على الإمام الغزالي وسمع الحديث من آخرين وتوفي سنة أربع وأربعين وخمس مائة .

ومنهم الإمام أبو الفتح أحمد بن علي بن محمد بن برهان الأصولي وكان حنبلياً ثم انتقل وتفقه على الشاشي ، وأبى حامد الغزالي والكنيا (٢) وكان يدرس في المدرسة النظامية في أنواع العلوم ، وكان يدرس للطلاب كتاب الأخياء في نصف الليل ولد سنة ست وسبعين وأربع مائة ، ووفاته سنة ثمانى عشرة وخمس مائة .

ومنهم أبو منصور محمد بن اسماعيل بن الحسين ابن القاسم العطارى الطوسى الواعظ الملقب بجندة توفي سنة ست وثمانين وأربع مائة ، وتفقه على أبى حامد فى طوس ، وعلى أبى بكر السمعاني فى « مرو » وسمع من البغوى كتبه ، ومن أبى الفتيان الدهشتانى الحافظ .

ومنهم الشديد أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد التوقاني ، تفقه على أبى حامد ، وقتل فى مشهد على بن موسى الرضى فى سنة أربع

(١) الغزالي : ج ٢ للدكتور الرفاعي ص ١٦٦ : ١٧٦ .

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن الطبرى المعروف بالكنيا الهراسى الفقيه الشافعى الثوري سنة ٥٠٤ هجرية والكنيا معناه : الكبير القدير المقدم بين الناس .

وخمسين وخمس مائة فى واقعة الثغر .

وأبو عبد الله محمد بن عبدالله بن تومرت المصمودى الملقب بالمهدى صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن بن على ملك الغرب ، دخل المشرق فتفقه على أبى حامد الغزالي ، وله أخبار طويلة وسيرة مستفاضة .

وأبو حامد محمد بن عبد الملك بن محمد الجوزقانى الإسفرائى ، تفقه على الإمام الغزالي ببغداد ، وسمع ابن أبى عبدالله الحميدى الحافظ ، لقبه ابن السمعاني فى « اسفرايين » موطنه .

وأبو عبدالله محمد بن على بن عبدالله العراقى البغدادي ، تفقه على الغزالي والكنيا والشاشي ، وبقي بعد الأربعين وخمس مائة .

وأبو سعيد محمد بن على الجاوانى الكردى ، حدث بكتاب « الجام العوام » للغزالي عنه ، وقرأ المقامات الحريرية على مؤلفها .

والإمام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور النيسابورى ، ولد سنة ست وسبعين وأربع مائة ، وهو من أشهر تلاميذ الغزالي ، تفقه عليه ، وشرح كتابه « البسيط » وسمع الحديث من أبى حامد بن عبدوس ونصر الله الحشنانى ، وعليه تفقه الموفق الحوشانى المدفون تحت رجل الإمام الشافعى بمصر ، استشهد فى رمضان سنة ثمان وأربعين وخمس مائة فى واقعة الغز .

ومنهم أبو طاهر ابراهيم بن الطهر الشيبانى حضر دروس إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى فى نيسابور ، ثم صحب الغزالي ، وسافر معه إلى العراق والحجاز والشام ، ثم عاد إلى موطنه بجرجان وأخذ فى التدريس والوعظ ، وقتل شهيدا سنة ثلاث عشرة وخمس مائة .

ومنهم أبو الفتح نصر بن محمد بن ابراهيم الأذربيجانى المراغى الصوفى ، حكى عن أبى حامد الغزالي وغيره ، وحكى عنه أبو سعد بن

السمعاني قال : سمعت أبا الفتح نصر بن محمد بن المراغي أملاه بأصل طبرستان يقول : اجتمع الأئمة أبو حامد الغزالي ، واسماعيل الحاكمي ، وإبراهيم الشبّاكي ، وأبو الحسن البصري ، وجماعة كثيرة من أكابر الغرباء في مهد عيسى عليه السلام بيت المقدس وأنشد فقال هذين البيتين :

فديتك ، لولا الحب كنت فدينتني

ولكن بسحر المقتلين سببتني (١)

أتيتك لما ضاق صدري من الهوى

ولو كنت تدري كيف شوقي أتيتني

فتواجد أبو الحسن البصري وجدا أثر في الحاضرين ، قدمعت العيون ومزقت الجيوب ، وتوفي محمد الكازروني من بين الجماعة في الوجد ، قال المراغي : وكنت معهم حاضرا ذلك .

ومنهم الإمام أبو عبدالله الحسين بن نصر بن محمد بن الحسين الجهني الموصلي تفقه على الغزالي وتوفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

ومنهم خلف بن أحمد النيسابوري ، تفقه على الغزالي ، وله عنه تعلية ، ذكره ابن الصلاح في «مشكل الوسيط» وقال : بلغني أنه توفي قبل الغزالي .

ومنهم أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل ابن سعد الأنصاري البكّسي المحدث ، أحد السيّاحين ، تفقه ببغداد على الغزالي ، وسمع بها عن طراد وابن البطر (٢) وروى عنه السمعاني وابن الجوزي ، وابنته

(١) سببتني : أسرتني .

(٢) هو أبو الخطاب نصر بن أحمد بن عبدالله بن البطر القارئ «المحدث ولد سنة ٣٩٨ وتوفي في ١٦ ربيع الأول سنة ٤٩٤ هـ .

فاطمة بنت سعد ، وتوفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو عبدالله شافع بن عبد الرشيد بن القاسم الجيلي ، تفقه على الكيا والغزالي ، وسمع الحديث بالبصرة ، وروى عنه السمعاني ، وتوفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو عامر دغش بن علي بن أبي العباس النعيمي الموفقي ، خرج إلى طوس وأقام عند الغزالي مدة ، وأخذ عنه ، وتوفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

ومنهم الأستاذ أبو طالب عبد الكريم بن علي ابن أبي طالب الرازي ، تفقه على الغزالي ببغداد ، وروى عنه أبو النصر الفامي مؤرخ هراة ، وكان أبو طالب يحفظ كتاب «الإحياء» سردا على القلب ، وتوفي «بمرو الروذ» سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

ومنهم الإمام أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر ابن منصور الرزاز ، ولد سنة اثنتين وستين وأربعمائة وتفقّه على الشاشي والغزالي والمتولي والطبري والكيا ، ودرس في النظامية ، وكانت وفاته سنة ثلاث وخمسمائة .

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد حمويه الجويني الصوفي ، صحب الإمام الغزالي بطوس وتفقّه عليه .

ومنهم أبو محمد صالح بن محمد بن عبدالله حراز ، لقبه بالقوس ، وصحبه واتفقت له معه غريبة حكاها أحمد بن عبدالله بن القاضي السجلماسي في كتابه «الإصليت» .

ومنهم أبو الحسن علي بن المطهر ، بن مكى بن مقلّاحي الدينوري ، من كبار تلاميذ الغزالي في الفقه وسمع الحديث من البطر ، وطبقته ، وروى عنه ابن عساكر ، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .

ومنهم مروان بن علي بن سلامة بن مروان بن عبدالله الطنزي من قرية

بديار بكر ، ورد بغداد وتفقه بها على الغزالي والشاشي ، وروى عنه ابن عساكر توفي بعد الأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو الحسن علي بن مسلم بن محمد علي السلمي جمال الإسلام ، لازم الغزالي مدة مقامه بدمشق وأخذ عنه ، ويحكى أن الغزالي قال بعد خروجه من الشام خلفت بالشام شابا إن عاش كان له شأن - يعني جمال الإسلام هذا - فكان كما تفرس فيه .

ثانيا : من مؤلفات الغزالي

مدخل إلى وسائل البحث عند الغزالي :

قبل أن نتعرف على مؤلفات الغزالي ينبغي أن نتحدث عن وسائل البحث عنده .. والحقيقة انه استخدم في بحوثه وكتاباته وسائل علمية على درجة كبيرة من الأهمية فاستعان بالملاحظة والتأمل الباطني والتجربة واستتار الناس ، والاستشهاد بالسلف وكان ملما بكل أطراف بحثه عالما بخفايا مشكلاته .. وقد أوضح لنا هذه النقطة الدكتور حسن الساعاتي (١) مستشهداً بنصوص الغزالي نفسه في بيان ذلك .

فمن أمثلة استخدامه للملاحظة المقصودة في البحث قول الغزالي في المنقذ من الضلال فان وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسماع ، فإنك اذا عرفت الطب والفقه يمكنك ان تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم .

وبالنسبة للملاحظة المقيدة وهي المقترنة بالتجربة فيظهر ذلك مثلاً من خلال حوار في «رسالة القسطاس المستقيم» مع رفيق من رفقاء أهل التعليم إذ يقول علي لسانه مجيباً عن سؤال : «فمن أين تعلم أن الميزان صادق ؟ أعلم ذلك علماً ضرورياً يحصل لي من مقدمتين : إحداها تجريبية ، والاخرى حسية . أما التجريبية ، فهي أني علمت بالتجربة أن الثقل يهوى الى اسفل ، وأن الاثقل اشد هويًا ، والمقدمة الثانية ، هي أن ميزان بعينه رأيت لم تهو إحدى كفتيه بل حاذت الأخرى محاذاة مساواة ، وهذه المقدمة حسية شاهدها بالبصر .»

أما بالنسبة للتأمل الباطني فكان ذلك يتم بملاحظة النفس في

(١) في بحثه بهرجان الغزالي بدمشق عام ١٩٦١ بعنوان «النهج الوضعي عند الغزالي» صفحة ٤٤٣ - ٤٤٨ باختصار .

تقلباتها ومتابعة أحوالها ، والشعور بهواجسها وخطواتها وثباتها وتتبع ذلك بإمعان . . . ولقد قدم لنا الغزالي صورة صادقة من التأمل الباطني الصريح في منقذه من الضلال حيث يقول : "ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد احدثت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت . .

وهذا تأمل باطني دقيق وملاحظة عميقة للنفس وتتبع عميق لها في أعماقها .

وبالنسبة للتجربة في ميدان العلوم الاجتماعية فهي تعنى ملاحظة السلوك وسط ظروف مدبرة .

ومن هذه التجارب ما ذكره الغزالي في الاحياء حيث يقول "فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه ، فيدرك صورته في نفسه وهو في الخيال ، ثم تبقى هذه الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظة أى "القدرة" ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعول إليه ، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ، ففي الباطن حس مشترك ، وتخيل وتفكر ، وتذكر وحفظ .

اما استيثار الناس فيظهر في قول الغزالي " فإنني تتبعت مدة آحاد الخلق . أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ، وأسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له : "مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست مستعداً لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة . فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ . . فقايل يقول : " هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة ، وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة .

ونلاحظ أن الغزالي يذكر آراء من سألهم واحداً واحداً ، ثم يُقنَد آراءهم ويرد على حججهم الواهية بحجج قوية .

أما مسألة الاستشهاد بالسلف فقد اعتمد عليها من خلال ما تواتر في بطون كتب التراث من أخبار السلف الصالح ، وقتلاً كتبه كلها بروائع المواقف العظيمة للقدوة الصالحة من أسلافنا المسلمين .

وهي استشهادات تزيد اليقين وتبين حقائق الأمور .

وبالنسبة للحديث نستطيع أن نقول ان بضاعة الغزالي التي كانت في الحديث قليلة . . لكنه في السنوات الاخيرة من حياته اهتم بدراسة الحديث النبوي لمعرفة الحديث الصحيح من الضعيف .

وقد أخذ عليه بعض العلماء أنه ترخص في النقل والرواية والاحاديث عن النبي والآثار عن الصحابة وأنه لم يكن يعتبر في بعض المواضع الفاظ الاخبار والآثار لانه لم يكن يهتم بتحرير الالفاظ كما هي

والحقيقة أن بعض العلماء رخصوا في ذكر الحديث بالمعنى دون النص اللفظي مثل عبد الله بن عباس ، وعلى ابى طالب ، وانس بن مالك ، والشافعى ، وابراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة .

وقد ورد في المسألة حديث مرفوع رواه ابن منّاه في معرفة الصحابة والطيراني في الكبير ، من حديث عبد الله بن سليمان بن اكثم الليثي قلت : يا رسول الله انى اذا سمعت منك الحديث لا استطيع ان أرويه كما اسمع منك ، يزيد حرفاً او ينقص حرفاً ، فقال اذا لم تحلوا حراماً ولم تحرموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس فذكر ذلك للحسن فقال : «لولا هذا ما حدثنا» .

ومع ما أخذ عليه من أنه أورد بعض الاحاديث الضعيفة في الإحياء

والمختصر الاخير ، وكتاب ميزان العمل وكتاب اسرار معاملات الدين .

ونستطيع الان ان نلقى الضوء على بعض مؤلفات الغزالي واهمها :

١- كتاب احياء علوم الدين :

يعد كتاب احياء العلوم للامام الغزالي من اهم كتب الفكر الاسلامي بما تضمنه من افكار ثرية وابواب عديدة شملت العبادات والمعاملات والاخلاق والتربية الاسلامية .

وبالرغم مما أخذه عليه ابن تيمية في فتاويه (١) وابن الجوزي في المنتظم (٢) الا ان كتاب احياء يعتبر جامعة روحية عظيمة يستطيع المسلم من خلالها ان يتعرف على روح الاسلام وجوهر العقيدة الاسلامية الصافية .

وهذا الكتاب تضمن فكر الغزالي الاصيل حتى أننا نستطيع ان نقول بلا تحفظ انه لو ذهب الغزالي وبقي «الاحياء» لأغنى هذا الكتاب عن سائر كتبه فهو كتاب يشيع العلم والنور والايمان والمعرفة ويدعو الى الاخلاق الفاضلة والآداب الحميدة كما يدعو إلى تزكية النفس وترقيتها حتى تصل الى مقام الإحسان .

وقد اختصره الغزالي في كتب ورسائل عدة منها الوجيز والمبسوط

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٢ صفحة ١٩٤

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ج ٩ صفحة ١٦٩ - ١٧٠ طبع دائرة المعارف خيدر آباد وفي كتاب تلبس الميس لابن الجوزي انتقد الغزالي وأخذ عليه كثرة الأحاديث الضعيفة . ومع ذلك فإن تأثير «الإحياء» عليه كان شديدا لدرجة أنه اختصر «الإحياء» في كتابه المعروف «منهاج القاصدين»

فقد خرجها الحافظ العراقي ، وبين أن أكثر ما قيل فيه عن إيراد أحاديث ضعيفة غير مستقيم ، إذ مقصده جميل لا يتعدى حسن ظنه بالذين رووها في كتبهم من قبله ونقل هو عنهم مثل صاحب قوت القلوب في معاملة المحبوب «ابو طالب المكي» .

والحقيقة أن الإمام الغزالي رضى الله عنه اهتم بدراسة الحديث في أخبار حياته وأنه حين عاد إلى موطنه "طوس" اجتهد في دراسة الحديث وقرأته ونسخه ، واستدعى إليه الحافظ ابا الفتيان عمر بن ابي الحسن الرؤاسي فأكرمه واغتنم أيامه وسمع منه الصحيحين .

وذكر الحافظ بن عساكر أنه سمع صحيح البخاري عن ابي اسماعيل الجفصي .

من مؤلفات الغزالي :

قال ابن السبكي «له في المذهب (أى مذهب الشافعي) البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة وفي سائر العلوم كتاب إحياء على الدين ، وكتاب الأربعين ، وكتاب الاسماء الحسنى ، والمستصفي في أصول الفقه ، والمنحول في أصول الفقه الفه في حياة استاذة امام الحرمين ، وبداية البداية ، والمآخذ في الاخلاقيات ، وتحصين المآخذ ، وكيمياء السعادة بالفارسية والمنقذ من الضلال ، والبيان المنتحل في الجدل ، وشفاء العليل في بيان مسائل التعليل ، والاقتصاد في الاعتقاد ، ومعيار النظر ، ومحل النظر ، وبيان القولين للشافعي ، ومشكاة الانوار ، والمشكاة في الرد على الباطنية ، وتهافت الفلاسفة والمقاصد في بيان اعتقاد الاوائل (وهو مقاصد الفلاسفة) ، والجام العوام عن علم الكلام ، والغاية القصوى ، وجواهر القرآن ، وبيان فضائح الامامية ،

والمرشد الأمين .

يقول الغزالي : .. رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما لإحياء علوم الدين ، وكشفا عن مناهج الائمة المتقدمين ، وإيضاحا لمناحي العلوم الناقصة عند النبيين والسلف الصالحين (١) .

والحقيقة ان هناك مؤلفات عدة قبل كتاب الإحياء تضمنت نفس موضوعات الإحياء مثل كتاب «قوت القلوب» لابن طالب المكي الذي استمد منه الغزالي الكثير من الافكار والموضوعات إلا ان كتاب الإحياء يتميز عن سائر الكتب التي سبقته في نفس الموضوعات بأشياء عديدة منها حسن التنظيم والتبويب ، وحسن العبارة وجزالتها ، ويسر الأسلوب وبساطته .

ويقول الغزالي نفسه عن غرضه من وضعه «الإحياء» :

« .. إن الناس من قبله وضعوا كتباً في مثل كتابه هذا ، ولكنه امتاز (أي امتاز) عنهم بأمر خمسة : وهى : اولاً - انه حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه ، وثانياً - انه رتب ما بددوه ونظم ما فرقوه . وثالثاً - أنه أجاز (أى : اختصر) ما طولوه ، وضبط ما قرروه ، والرابع - حذف ما كبروه وإثبات ما حرروه ، والخامس - تحقيق أمور غامضة ، اعتاصت (أى : صعبت) على الأفهام ، ولم يتعرض لها في الكتب مطلقاً ، إذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن ينفرد واحد من السالكين بالتنبيه الى أمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه .

ولقد شغف كثير من العلماء بهذا الكتاب وأعجبوا به إعجاباً به شديداً حتى بالغوا فى مدحه والثناء عليه نظراً لتأثيره القوي فى نفوسهم وعقولهم وفكرهم .

يقول الشيخ عبد الغافر الفارسي معاصر الغزالي وزميله فى التلمذة

(١) إحياء علوم الدين ج ٧ - صفحة ٣ طبعة الخليلي .

على إمام الحرمين الجويني انه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق اليها (١) . ويقول عنه الحافظ العراقي (٢) إنه من أجل كتب الاسلام (٣) ويقول ابن خلكان وهو من انفس الكتب وأجمعها (٤) .

وقد رد الغزالي بنفسه على اعتراضات أوردتها بعض معاصرين على مواضع من الإحياء وذلك فى كتابه الإملاء على مشكل الإحياء (٥) .

ويسمى أيضا "الأجوبة المسكتة عن الاسئلة المبهتة" .

ودافع عن كتاب الإحياء بعض العلماء مثل صاحب «تعريف الإحياء» بفضل الإحياء (٦) .

الشيخ عبد القادر بن عبد الله العبد روسى باعلوى

ونظراً لأهمية كتاب "الإحياء" فقد شرحه المرتضى فى «اتحاف السادة المتقين» (٧) .

ووضع للإحياء عدة تلخيصات من أهمها «لباب إحياء علوم الدين» (٨) لأخ الغزالي أحمد الملقب بابى الفتوح أحمد بن محمد الغزالي المتوفى بقزوين سنة عشرين وخمسمائه .

(١) كتاب تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس صفحة ١٥ .

(٢) هو الحافظ الإمام زين الدين أبو الفضل ، المعروف بالعراقي ، صاحب الألفية فى مصطلح الحديث وهو الذى خرَّج أحاديث الإحياء .

(٣) كتاب تعريف الإحياء صفحة ١٤ .

(٤) وفيات الأعيان ج ٣ صفحة ٣٥٤ .

(٥) طبع مع كتاب «اتحاف السادة المتقين» للمرتضى طبعة القاهرة ١٣١١ هـ . وعلى هامش بعض طبعات الإحياء بالقاهرة .

(٦) «تعريف الأحياء بفضل الإحياء» لعبد العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ هجرية - ١٦٢٨ م وقد طبع هذا الكتاب على هامش بعض طبعات كتاب الإحياء طبعة القاهرة .

(٧) «اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد بن الحسين المرتضى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ - ١٧٩١ م . وقد طبع فى فاس عام ١٣٠١ هـ - فى ١٣ جزءاً . وفى القاهرة عام ١٣١١ هجرية فى عشرة أجزاء .

(٨) «لباب إحياء علوم الدين» لأحمد الغزالي طبع على هامش كتاب "نزعة الناظرين" لعبد الملك بن المنير تقى الدين اليابى الحلبي ١٣٠٨ هـ ، و١٣٢٨ هـ .

و«المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين» (١)
لجمال محمد بن محمد سعيد بن صالح القاسمي الدمشقي و«صفوة
الاحياء» لقراءة (٢).

محتويات كتاب الإحياء :

كتاب الاحياء مؤلف من اربعة اجزاء (العبادات ، والعادات
والمهلكات والمنجيات) . وكل قسم من هذه الاقسام مقسم الى عشرة
كتب .

والقسم الاول للعبادات وهو ، يشتمل على كتاب العلم وكتاب
قواعد العقائد وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ومهماتهما ،
وكتاب اسرار الزكاة وكتاب أسرار الصوم ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب
آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الاذكار والدعوات ، وترتيب الاوراد في
الاقوات . وتفصيل احياء الليل .

ووضع الغزالي قسما للعبادات : يشتمل على كتب في الأكل ،
وآداب الزواج واحكام الكسب والمعاش ، والحلال والحرام ، وآداب
الصحية والمعاشرة مع اصناف الخلق ، والعزلة ، وآداب السفر ، والسماع
، والوجد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآداب المعيشة وأخلاق
النوبة .

ووضع الغزالي قسما للمهلكات : ويشتمل على كتب في شرح
عجائب القلب ، ورياضة النفس ، وتهذيب الاخلاق وآفات الشهوتين
شهوة البطن وشهوة الفرج ، وآفات اللسان ، وآفات الغضب ، والحد
والحسد ، وذم الدنيا وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر
والعجب وذم القرور

(١) «المرشد الأمين . . .» للقاسمي الدمشقي في جزئين طبع في القاهرة ١٣٣١ هـ .

١٣٤٨ هـ ، ١٩٢٩ م .

(٢) «صفوة الإحياء» لمحمود على قراءة - طبع بالقاهرة ١٩٣٥ م .

كذلك وضع الغزالي قسما للمنجيات : ويحتوي على كتب في
التوبة ، والصبر والشكر ، والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد
والتوكل ، والمحبة والشوق والأنس والرضا ، والنية والصدق
والإخلاص ، والمراقبة والمحاسبة والتفكير وذكر الموت وما بعده .

وحديث عن الصلاة من اروع ما كتب في هذا الموضوع فقد عرض
روح الصلاة الخاشعة المتوجهة الى الله تعالى في حضور قلب ، وطمأنينة
نفس ، ذلك انه في احياء علوم الدين بهتم اهتماما بالغا باعمال القلب
لا اعمال الجوارح فيركز على خفايا ودقائق المعاني واسرارها .

«فاما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها
وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل اليه بل لا يكون من علماء
الآخرة من لا يطلع عليه ، واكثر ذلك مما اهمل في فن الفقهيات» (١) .

وفي حديثه عن الصلاة يتناول الشروط الباطنة من اعمال القلب
ويبين ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب ثم يذكر المعاني الباطنة
وحدودها وأسبابها وعلاجها .

ويذكر كذلك تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان
الصلاة لتكون صالحة لزيد الاخرة .

ويرى الغزالي ان حضور القلب هو روح الصلاة : فالمصلي مناج ربه
سبحانه وتعالى والذكر في الصلاة مع الغفلة ليس بمنجاة .. «ولا يكون
نطقا الا اذا اعرب عما في الضمير ، ولا يكون معريا الا بحضور
القلب ، فأى سؤال في قوله (اهدنا الصراط المستقيم) إذا كان القلب
غافلا ؟ واذا لم يكن يقصد كونه تضرعا ودعاء فأى مشقة في تحريك
اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد الاعتياد .. ولا شك ان المقصود من
القراءة والاذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله عز
وجل وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل

عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتسقيط القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الايمان به» (١).

ويكاد يبطل الغزالي الصلاة إذا لم يحضرها القلب فهو يشترط حضور القلب شرطاً لصحتها مخالفاً بذلك إجماع الفقهاء فانهم لم يشترطوا حضور القلب إلا عند التكبير فقط .

ورسول الله صلى عليه وسلم يقول : «إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها» (٢).

وحقيقة انه من الصعب على الانسان أن يكون حاضر القلب في كل صلاة وطوال الصلاة كلها ولهذا يقول :

«وهمة الرجل مع قرعة عينه فإن كانت قرعة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة فهذا هو الدواء المر والمرارة استبشعته الطبايع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالاً ، حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثوا أنفسهم فيها بأمر الدنيا فعجزوا عن ذلك فإذا لم يطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لتكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وقد بين الغزالي المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة وجمعها في ست جمل وهي : حضور القلب ، والتفهم ، والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء .

وقصد بحضور القلب أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما ، ولا يكون الفكر

جائلاً في غيرهما .. ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ ، فاشتغال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم .

وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظماً له فالتعظيم زائد عليهما .

وأما الهيبة فزائدة على التعظيم ، والهيبة خوف مصدرها الإجلال ، وأما الرجاء فلا شك أنه زائد ... والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل ، وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار وتوهم ذنب ولا يتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

«ولكل درجات مما عملوا» فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات ، ولذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة ، ولقد صدق فإنه يحشر كل على ما مات عليه ويموت عليه ويموت على ما عاش عليه ، ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه فمن صفات القلوب تصاع الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم» (١).

وبين لنا الغزالي الدواء الناجع في حضور القلب ، ودفع الخواطر التي تشغل الإنسان أثناء صلاته ويقول «وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً .

أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يختطف

الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجرُ الفكرة إلى غيره ويتسلسل ،
ويكون الإبصار سببا للإقتكار ، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا
للبيض ، ومن قويت نيته وعلت همته لم يله ما جرى على حواسه ولكن
الضعيف فلا يد أن يفرق به فكره ، وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض
بصره أو يصلى في بيت مظلم أولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب
من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة
على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة
... وأما الأسباب الباطنة فهي اشد ، ويعينه على ذلك ان يستعد له
قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام
بين يدي الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما
يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره « (١) » .

هكذا نلاحظ النظرة النفسية العميقة داخل عقل المصلى يقدمها لنا
الغزالي فإنه يبين أثر قوة تداعي أفكار المصلى من خلال نوافذ البصر
والسمع اللذان يؤديان إلى انشغال العقل وعدم حضور القلب وغفلته ، ثم
يبين لنا أن غض البصر وكفه في أثناء الصلاة أو الصلاة في الظلام حيث
أن الاضواء المبهرة قد تساعد على شغل النفس بها كما أن الصلاة على
السجاجيد المزركشة والملونة قد يشغل الإنسان عن روح الصلاة .

ولقد كان الغزالي رائدا في هذه النظرة النفسية العميقة حين اشار
إلى العوامل الخارجية التي تساعد على عدم حضور القلب في الصلاة
والعوامل الداخلية ويعنى بها انشغال الانسان بهومه الجوانية والبرانية
عن حقيقة روح الصلاة .

وكان اهتمام الغزالي كبيرا بـ «علم القلوب» وسماه «علم الآخرة»
في مقابل «علم الدنيا» وسماه «علم اليقين» كذلك .

وهو لم يخرج على الإطلاق الفقهاء الأربعة فهم في نظره علماء

(١) الإحياء : ج ١ ص ١٦٢ و ص ١٦٤ .

بالآخرة بالإضافة إلى علمهم بالفقه .

وإنما نقد من أتى بعدهم ممن اقتدى بفقههم وحده دون علمهم فيقول
« ما ذكرناه ليس طعنا فيهم (أي في الاتمة) بل هو طعن فيمن أظهر
الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم » (١) .

ويعتبر الغزالي أن من أهم وظائف الفقه الدينية ، وظيفته السياسية
والحياتية فنتيجة لتنازع الشهوات كما يقول الامام الغزالي تولدت
الخصومات بين الناس «فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج
السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة
وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم
السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنظيم باستقامتهم
أموار الدنيا .

وكما ان سياسة الخلق بالسلطة ليس من علم الدين في الدرجة الاولى
.. فكذلك معرفة طريق السياسة (أي الفقه) .. وحاصل فن الفقه معرفة
طرق السياسة والحراسة » (٢) .

فالفقه يهتم بالامور الظاهرة للعبادات فيحكم الفقيه بصحة الإسلام
باللسان تحت ظلال السيوف دون القلب مع أنه يعلم أن السيف لم يظهر
له حقيقة نيته وسر طويته ويقول في ذلك (اعلم ان اقرب ما يتكلم الفقيه
فيه من الاعمال التي هي من اعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة
والزكاة والحلال والحرام) .

فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا
إلى الآخرة ، واذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر ، أما
الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه وليس
يلتفت فيه الى اللسان ، وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول

(١) الإحياء : ج ١ ص ٢٤ .

(٢) إحياء : ج ١ ص ١٧ و ص ١٨ .

الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال «هلا شققت عن قلبه» (١) للذي قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف . بل يحكم الفقيه بضحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والخيرة ، ولكنه مشير على صاحب السيف فإن السيف ممتد إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تقصم رقبته وماله ما دام له رقبة ومال ، وذلك في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم» (٢) ، وأما الآخرة فلا تنفع فيها الاموال بل انوار القلوب واسرارها واخلاصها وليس ذلك من الفقه (٣)

إما الآخرة فموضوع علماء الآخرة .. علماء القلوب والمعاملة والمكاشفة إنهم أصحاب علم اليقين ولعل أهم صفة لعالم الآخرة «ان يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين» .. (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليقين الايمان كله» (٥).

موقف الغزالي من العلماء ورجال الدين :

يرى الغزالي أن فساد الشعوب والأمم يقع في المقام الاول على العلماء ورجال الدين ، لان العلماء ملح الامة ، واذا فسد الملح فما الذي يصلحه .

يا معشر القراء يا ملح البلد .. ما يصلح الملح اذا الملح فسد ويرجع الغزالي فساد الحكام والملوك والعمال والرعية إلى سوء العلماء والقضاة وفسادهم يقول : «بالجملة إنما فسدت الرعية بفساد

الملوك ، وفساد الملوك لفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك ، خوفا من انكارهم» (١).

ويقزع الغزالي ويفضح العلماء الذين يتقاعسون عن أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصح الحكام وتوجيههم ، ويوبخهم أشد التوبيخ ويبين أنهم وقعوا في حب الدنيا وطلب المنزلة الرفيعة والجاه والشهرة ونظروا إلى عطاء الملوك والأمراء ونسوا أن الله تعالى هو الرزاق وأن العطاء عطاؤه ، وأن الأعمار بيده لا بيد الحكام والملوك ، وبعد أن يقدم قصصا من التاريخ الإسلامي تبين شجاعة علماء السلف وقولهم كلمة الحق في وجه الحكام والملوك دون خشيتهم يقول :

«وأما الآن فقد قيدت الأطناع ألسن العلماء فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الارازل ، فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال . (٢)

ان الغزالي وضع اصبعه على أحد اسرار فساد الشعوب والامم .. انهم العلماء حين يستولى عليهم حب المال والجاه والدنيا والطمع فيما في أيدي الناس والحكام .. حين ينشغلون عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الى الانشغال بالامور الحياتية .. وبدلا من الخوف من الله خافوا من الناس ، وسطوة الحكام ، فظلموا الناس وظلموا انفسهم وافسدوا الملوك والرعية ، فالتبعة في ذلك تقع على علماء الدين لانهم ملح الامة ، واذا فسد الملح فما الذي يصلحه .

ويهتم الغزالي بالعمل والسلوك بالنسبة للعالم فينبغي أن لا يخالف

(١) الإحياء ج ٢ ص ١٢٢ .

(٢) الإحياء ج ٣ ص ١٢ .

(١) أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة وعمر بن الخطاب .

(٣) الإحياء صفحة ١٨ ج ١

(٤) الإحياء ج ١ صفحة ٧٢ .

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .

وعدم المعرفة ... يقول الغزالي «.. منها ان لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفا ومتحرزا ما وجد إلى الخلاص سبيلا ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو اجماع أو قياس جلي أفنى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لا أدري وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم لان تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفي الخبر العلم ثلاثة : كتاب ناطق ، وسنة قائمة ، ولا أدري (١) قال الشعبي لا أدري نصف العلم ، ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق لان الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضی الله عنهم» (٢)

ويقول الغزالي : كان ابن عمر رضی الله عنهما يستل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع وكان ابن عباس رضی الله عنهما يستل عن عشر مسائل فيجيب عن تسع ويسكت عن واحدة ، وكان في الفقهاء من يقول «لا أدري» أكثر ممن يقول «أدري» منهم سفيان الثوري ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن الحرث» (٣).

وكان بعض العلماء يحللون أخذهم عطايا الامراء والحكام بقولهم ان كثيرا من السلف والتابعين قبلوا أموال وهبات وعطايا الأمراء .

ولكن الغزالي يبين مدى اجترأ هؤلاء العلماء على الحق وكشف مدى ضلالهم وخبيثهم ويفضح قياسهم الخاطيء حين يقول .. إن الظلمة في العصر الاول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين - كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة

(١) أخرجه الخطيب في أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ، ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا نحوه مع اختلاف .

(٢) الإحياء ج ١ ص ٧ .

(٣) الإحياء ج ١ ص ٧ .

فعله قوله بل لا يأمر بالشئ ما لم يكن هو اول عامل به ، قال «أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم» وقال تعالى : «كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» ، وقال ابو الدرداء رضی الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وصدق من أنشد :

يا واعظ الناس قد اصبحت متهما .. اذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصهم بالوعظ مجتهدا .. فالمواقات لعمري أنت جانبيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها .. وأنت أكثر منهم رغبة فيها
وقال آخر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله .. عار عليك إذا فعلت عظيم

والغزالي يرى أن من أهم آفات علماء السوء إتيان العلماء الأمراء والحكام ، ويستشهد في ذلك بطائفة من أقوال الصالحين ويعلق عليها فيقول : قال ابو ذر لسلمة : يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لا سيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذا لا يزال الشيطان يلتقى اليه : أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه ان الدخول عليهم من الدين ، ثم اذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الشناء والاطراء وفيه هلاك الدين .

وكان يقال : العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا (١).

كذلك يرى الغزالي أن من آفات علماء السوء المسارعة إلى الفتيا والاجابة دون تحقيق أو روية على كل استفسار خشية أن يتهم بالجهل

والتابعين ، وحرصين على قبولهم عطاياهم ، وجوائزهم وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلدون المنّة بقبولهم ويقترحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ، ولا يكثررون جمعهم ، ولا يحبون بقاءهم ، بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان ، وينكرون المنكرات منهم عليهم ، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ، ولم يكن يأخذهم بأس .

فأما الآن ، فلا تسمع نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامها والتكثر بهم ، والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمل بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء ، والتركية والإطراء في حضورهم ومغيبهم قلوبهم لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً ، والتردد في الخدمة ثانياً والثناء والدعاء ثالثاً ، والمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ويتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وبإظهار الحب والمودة والناصره له على أعدائه سادساً ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعاً ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً ، فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ، فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين ، فقد قاس الملائكة بالحدادين (١) .

وهذه صرخة حق مدوية يعلنها الغزالي في وجه كل حاكم ظالم وكل عالم مداهن منافق يتكسب من هؤلاء الحكام الظلمة .. بل أكثر من ذلك فإن الغزالي يطالب العلماء ببغض الظلمة وكراهية بقائهم واعتزال المتقرين إليهم والمتصلين بهم (....) فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يحب بقاءهم ، ولا يشئ عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ،

(١) الإحياء ج ٢ ص ١٢٢ و ص ١٢٣ .

ولا يتقرب إلى المتصلين بهم (١) .

ويضرب الغزالي أمثلة وغاذج قدوة من العلماء الراشدين مثل المحدث الفقيه سفيان الثوري وما حدث له مع هارون الرشيد ، فعن أبي عمران الجوني (٢) قال : لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الاموال واقبل يجيزهم بالجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر التسك والتشف ، وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري قديماً فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلوا به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هارون فكتب إليه كتاباً يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد ، يا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم انى قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك وانى منطورك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التى قلدينها الله لأتيتك ولو حبوا لما أجد لك في قلبى من المحبة واعلم يا أبا عبد الله انه ما بقى من اخوانى وأخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنأنى بما صرت إليه وقد فتحت بيوت الاموال واعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسى وقرت به عينى وانى استبطأتك فلم تأتنى ، وقد كتبت لك كتاباً شوقاً منى إليك شديداً ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته فإذا ورد عليك كتابى فالعجل العجل ، فلما كتب الكتاب التفت الى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته فقال : على برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقانى ، فقال : يا عباد خذ كتابى هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بنى ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري فإذا رأيته فالتق كتابى هذا إليه وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول فأحص عليه دقيق

(١) الإحياء ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) الإحياء ج ٢ ص ٣٥٣ - ص ٣٥٥ .

أمره وجليله لتخبرني به . فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ثم سأل عن سفيان فقبل له هو في المسجد قال عباد : فأقبلت إلى المسجد فلما رأتني قام قائما وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعد بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير . قال عباد : فوقعت الكلمة في قلبي فجزحت ، فلما رأتني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة ، فربطت فرسى بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما رفع أحد إلى رأسه وردوا السلام على برءوس الأصابع ، فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض على الجلوس وقد علاني من هيبتهم الرعدة ومددت عيني إليهم فقلت ان المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب إليه ، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كفه ولفها بعباءته وأخذ فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه فإني استغفر الله أن أمس شيئا منه ظالم بيده ، قال عباد : فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من قم حية تنهشه ، ثم فضه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته قال : اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقبل له : يا ابا عبد الله أنه خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس نقي ، فقال : اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من جلال فسوف يجزي به . وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلي به ولا يبقى شيء منه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا ، فقبل له : ما نكتب ؟ فقال اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان ، أما بعد : فإني قد كتبت إليك اعرفك أنني قد ضربت حبلك وقطعت ودك وقلبت موضعك فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فانفقته في غير حقه وانفذته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إلى

تشهدني على نفسك ، أما اني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى ، يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى المجاهدين في سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعبت ؟ فشد يا هارون مئزرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبا ، وأعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيق القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما ، يا هارون قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت سترادون بابك وتشبهت بالحجة برب العالمين ، قد أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ، ولا ينصفون ؟ يشربون الخمر ويضربون من يشربها ويزنون ويجلدون الزاني ؟ ويسرقون ويقطعون السارق أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف بك يا هارون غدا إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أى الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عتقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأنى بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بوعظتي التي وعظتك بها ، وأعلم أنني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيح غاية ، فاتق الله يا هارون في رعبتك واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم ، وأعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحد بعد واحد فمنهم من تزود زادا نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، فإياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام ، قال عباد : فألقى إلي الكتاب منشورا غير مطوى ولا مختوم فأخذه وأقبلت إلي سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فتأديت يا أهل الكوفة ، فأجابوني فقلت لهم : يا قوم من يشتري رجلا هرب من الله إلى الله ، ؟ فأقبلوا إلى بالدنانير والدرهم ، فقلت :

لا حاجة لي في المال ولكن جبهه صوف خشنة وعباءة قطوانية ، قال :
 فأتيت بذلك ونزعته ما كان على من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير
 المؤمنين ، وأقبلت القوة البرقون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى
 أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافيا راجلا ، فهزأ به من كان على باب
 الخليفة ، ثم استوفى لي فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام
 وقعد ، ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن
 ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسل مال وللدنيا مالي والملك يزول عني
 سريعا ؟ ثم ألقى الكتاب إليه منشورا كما دفع الي ، فأقبل هارون
 يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه وقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه : يا
 أمير المؤمنين لقد اجترع عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد
 وضيق عليه السجن كنت تجعله غيرا لغيره ، فقال هارون : اتركونا يا
 عبيد الدنيا ، المغرور من غرقوه والشقي من أهلكتموه ، وإن سفيان
 أمة وحده قاتركوا سفيان وشأنه ، ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون
 يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمة الله ، فرحم الله عبدا نظر لنفسه
 واتقى الله فيما يقدم عليه غذا من عمله فإنه عليه يخاسب وبه يجازى
 والله ولي التوفيق .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها
 أياما ثم ضرب بالرحيل ، فخرج الناس ، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج
 بالكتاسة والصبيان يؤذونه ويولعون به ، إذ أقبلت هودج هارون فكف
 الصبيان عن الولوع به فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير
 المؤمنين فكشف هارون السجاف بيده عن وجهه فقال : لبيك يا بهلول
 فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثنا أمين بن نائل عن قدامة بن عبد الله
 العامري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفه على
 ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك (١) وتواضعك في سفرك هذا

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامري : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفه
 على ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن
 ماجه دون قوله منصرفا من عرفه وإنما قالوا : يرمى الجمرة ، وهو الصواب

يا أمير المؤمنين خير لك من تكبيرك وتجهرك ، قال : فبكى هارون حتى
 سقطت دموعه على الأرض ، ثم قال : يا بهلول زدنا رحمك الله قال نعم
 يا أمير المؤمنين ، رجل آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف في
 جماله كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار ، قال : أحسنت يا
 بهلول ، ودفع له جائزة فقال : أردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة
 لي فيها ، قال : يا بهلول فإن كان عليك دين قضيناه ، قال يا أمير
 المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن
 قضاء الدين بالدين لا يجوز - قال : يا بهلول فنجرى عليك ما يقوتك أو
 يتيك ، قال : فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين
 أنا وأنت من عيال الله فمحال أن يذكرك وينساني ، قال : فأسبل هارون
 السجاف ومضى .

وفي فترة اتصاله الوثيق بالقاعدة العريضة من المجتمع الاسلامي
 الذي كان يعيش فيه استطاع الغزالي أن يعرف عادات وتقاليده وأساليب
 الحياة في هذه البيئات ووضع يده على عيوب الطبقات المختلفة ووضع
 في إحياء علوم الدين بابا كاملا هو الباب الثالث من كتاب الامر
 بالمعروف والنهي عن المنكر (١) فتحدث من خلاله عن المنكرات المألوفة
 في العادات مثل منكرات المساجد ومنكرات الأسواق ومنكرات الشوارع
 ومنكرات الضيافة والمنكرات العامة .

وفي الكتاب الثامن من الربع الرابع ربع المنجيات من إحياء علوم
 الدين يتحدث الغزالي عن توبيخ النفس ومعاتبتها حديث عالم النفس
 الخبير بالنفوس البشرية وما أروع حديثه حين يقول (٢) « وإن لازمتها
 بالتوبيخ والمعاتبة والعدل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي
 أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في
 زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها

(١) وهو الكتاب التاسع من ربع العادات الثاني

(٢) الإحياء ج ٤ صفحة ٤١٦ و ٤١٧ .

ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ألا فاستحي مني ، وقال تعالى «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وإنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها : يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ، أما تعرقين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى احدهما على القرب ؟ فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا ، فأراك ترين الموت بعيدا ويراها الله قريبا ؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطاة وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الانقاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضى إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت ، وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تدبرين قوله تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) ويحك يا نفس إن كانت جراتك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه فما أشد وقاحتك وأقل حيائك ، ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من أخواتك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه افتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات هيهات ، جري نفسك إن أهلك

البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قري أصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك ؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائاه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستنيطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا ارهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا بما لا ينقضى الا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ، ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بالسانك وأثر النفاق ظاهر عليك الم يقل لك سيدك ومولاك (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) وقال في أمر الآخرة (وإن ليس للإنسان إلا ما سعى) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكلي أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في البرك الأسفل من النار ؟ ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انقلت وتخلصت وهيهات (أتحسبين أنك تتركين سدى)

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أن هناك أثرا يونانيا في باب «تربخ النفس ومعانيها» في كتاب المراقبة والمحاسبة من «إحياء علوم الدين» فهذا الباب في رأيه قد تأثر فيه الغزالي نموذجاً يونانيا راتعا ، هو كتاب «معادلة النفس» المنسوب عادة إلى هرمس ، وأحيانا قليلة إلى افلاطون ، وهو من الكتب المنحولة الموضوعة في العهد الهليني المتأخر ، ويدعى أحيانا في بعض المخطوطات باسم «كتاب معادلة النفس» وأحيانا أخرى ينسب إلى أرسطو ويدعى «زجر النفس» كما

أشار إلى ذلك حاجي خليفة (١)

وقد نشر الدكتور عبد الرحمن بدوي كتاب «معادلة النفس» ضمن كتابه «الأفلاطونية المحدثة عند العرب» ، وحقق في مقدمته أن هذا الكتاب من العهد النحوي المتأخر ، أي قبل الإسلام ، فيما بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين ، وأنه اثر من الآثار الهرمسية التي غزت الفكر اليوناني المتأخر ، ولعل كاتبة كان وثنيا زاهدا مؤمنا بالأفلاطونية المحدثة والغنوصية فهو إذن أدخل في باب الأدب الهرمسي الذي انتشر انتشارا هائلا تحت اسم هرمس ، وهو اسم مجهول غامض ، وذلك في فترة انحلال الحضارة اليونانية الرومانية .

ويستدرك الدكتور عبد الرحمن بدوي رأيه بقوله :

(٢) «... لكن تأثر الغزالي إنما هو بالصياغة وطريقة المناجاة في الكتاب كان بمثابة نموذج أدبي يوناني عارضه الغزالي بنموذج إسلامي من نفس القالب ، وتفرده فيه أحيانا نفس المعاني .

لكن الغزالي حرص كل الحرص على أن يصيغه بالصيغة الإسلامية القرآنية نظرا إلى أنه ولعله اشتم في نمودجه أن روحه يونانية وثنية وأن كانت زاهدة رقيقة السمو الروحي ، وإن القارئ لهذا الفصل في كتاب «الإحياء» للغزالي ليدركه هذا القالب الذي صبت فيه عباراته ، إذ لا نجد هذا القالب عند كاتب إسلامي آخر قبل الغزالي ولا بعده .

ويقول الدكتور بدوي كذلك ، ، ولكن هذا التشابه الواضح في الصياغة وفي بعض المعاني البارزة يجب ألا ينسينا الفارق بين الكاتبين ، فهرمس (المتحول طبعا) يستخدم العبارات الفلسفية الأفلاطونية المحدثة كثيرا في كلامه مثل العقل وكونه للنفس كالآب ، والطبيعة وكونها كالزوجة ، وكلامه عن دار المحسوسات ودار المعقولات ، وإن

(١) في كتاب كشف الظنون صفحة ٥٤ تحت رقم ٦٨٤٦ .

(٢) بحث ٥ .. عبد الرحمن بدوي ضمن البحوث مهرجان الغزالي بدمشق ص ٢٢٦ .

النفس سجن البدن ، والجوهر الصوري ... يدخل في الاصطلاحات الأفلاطونية المحدثة أما الغزالي فكلامه بسيط مستمد من معاني القرآن وعباراته دون إدخال أي اصطلاح فلسفي ، كما هو شأنه في كتاب «الإحياء» كله لأنه يتجه به إلى عامة الناس ولهذا نستطيع أن نقول على وجه العموم أن الغزالي إنما تأثر بالروح العامة ثم بأسلوب الكتابة في رسالة «معادلة النفس» لهرمس ، وفيما عدا ذلك يدخل جل بل كل كلامه في الإطار الإسلامي الخالص ، خصوصا وليس في رسالة هرمس أدنى إشارة إلى حساب وعقاب وآخره ، بينما الغزالي يحرص على تأكيد هذه المعاني في معانيته للنفس يتخويفها بها لئلا تفرها ، ومن هنا كان من الممكن استخراج فلسفة واضحة المعالم يادية الأسرار من رسالة هرمس أما عن فصل الغزالي في «الإحياء» فلا نكاد نستخرج غير جعل مؤثرة في الوعظ .

لكن ليس لنا أن نقوم بالتقويم بين الاثنين ، لأن هدف كليهما ، والجمهور الذي يتجه إليه كلاهما مختلف (١) .

والحقيقة أن ما بين «معادلة النفس» لهرمس ، وباب توبيخ النفس ومحاسبتها للغزالي وعدد صفحاته سبع صفحات فقط من ٤١٦ إلى صفحة ٤٢٢ من الجزء الرابع من كتاب «الإحياء» أقول ما بينهما من صلة لا يرقى إلى مرقى التأثير ، والتأثر ، فروح كتابات الغزالي طابعها إيماني عميق وكتابات هرمس يغلب عليها روح الوثنية اليونانية رغم ما يشوب كتاباته في «معادلة النفس» من زهد وغنوصية ظاهره .. وأنه من الخطأ أن نقول ببساطة هكذا أن الغزالي قد تأثر في هذا الباب بكتابات «هرمس» الوثني الزاهد المتأثر بالأفلاطونية المحدثة والغنوصية

لهذا أزعم أن الأستاذ الدكتور بدوي خانة التوفيق في هذه الملاحظة ، ولعل ذلك راجع إلى فكرة مسبقة في ذهنه وهي تأثر الغزالي بالأفلاطونية المحدثة والفلسفة اليونانية تأثرا كبيرا ، ولو أنه نظر

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

للمسألة بنزاهة وموضوعية ودون فكرة أو اتجاه مسبق ما رأى هذا الرأي وما اتجه هذا الاتجاه - وبالذات - في إحياء علوم الدين .

٢- مشكاة الأنوار :

من أبداع وأجمل رسائل الغزالي هذه الرسالة الرائعة .

وقد شك بعض الباحثين في صحة نسبة رسالة «المشكاة» إلى الغزالي منهم ، الدكتور عبد القادر محمود^(١) والذي يقول .. وقد لاحظت بمقارنة حديث الحجب والتجلي ، تجلى الله الأعظم في نوره المحمدي عبر الأنبياء والأولياء - أقول (أى الدكتور عبد القادر محمود) أنى لاحظت أن مضمونه يتسق ويوثق تمام التوثيق بما ذكره الغلو الشيعي عن الإمام جعفر الصادق زورا - بأنه روى عن الإمام على أن النور المحمدي كان منظوبا على حجاب القدرة سبعة آلاف سنة ، وعلى حجاب الهداية خمسة آلاف سنة ، وعلى حجاب اللطف تسعة آلاف سنة والغزالي من هذا براء^(٢) .

ويقول الدكتور عبد القادر محمود^(٣) .. نلاحظ أن «المشكاة» ترادف بين معنى الروح أو الإبراهيمي وبين النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لم ينطق ولم يشر إليه الغزالي على الإطلاق هنا أو لدى أى مؤلف من مؤلفاته المنحولة الأخرى فضلا عن الأصيل ، في الوقت الذي تصل المشكاة الغزالي بركب الفيض والصدور ووحدة الشهود والاتجاه والميل إلى الاتحاد والحلول وهو الذي ذكر في أمهات كتبه أن كل هذا خطأ بل كفر هذه الاتجاهات .. بل الغزالي رحمه الله تعالى لا يوافقهم أبدا . ولا شك أن هذا الاتجاه يضي بالغزالي بالركب المتفصل وهو منه براء .

براء .
(١) في كتابه الفلسفة الصوفية في الإسلام طبعة دار الفكر العربى بالقاهرة صفحة ٢٨١ - ٢٨٥ .

(٢) خاصة الأخبار لمحمد تقي الخرنساري صفحة ٢٨ .

(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام للدكتور عبد القادر محمود صفحة ٢٨٢ .

ويذكر أن «فنسك» ألقى الشك علي الفصل الأول من المشكاة وأن مونتهجومى أكد أن الفصل الثالث منها منحول^(١) .

والحقيقة أن كل ما حاوله «فنسنك» هو محاولة متواضعة كى يثبت أن القسم الأول من «مشكاة الأنوار» مجرد تلخيص للفصل الخامس من التساع الرابع من تساعات أفلوطين وهى محاولة متعسفة كل التعسف .

أما بالنسبة لمونتهجومى فقد رد على مزاعمه الدكتور بدوى حين قال (٢) : زعم مونتهجومى وت في بحث إلقاء بمؤتمر المستشرقين في باريس سنة ١٩٤٨ (ونشره بعد ذلك في J R A S لسنة ١٩٤٩م ص ٥ - ص ٢٢) أن الفصل الثالث من «مشكاة الأنوار» في معنى قوله صلى الله عليه وسلم أن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره .. نقول أنه زعم أن هذا الفصل الثالث منحول ومقحم على النص الاصيل لمشكاة الأنوار بدعوى أن فصل «الحجب» هذا ، على حد تعبيره ، هو ذو نزعة أفلاطونية محدثة واضحة .. بينما الغزالي لم يتصل في أى موضع آخر - صراحة أو تضمينا من النقد الذى وجهه إلى الأفلاطونية المحدثة في كتاب «التهاوت» وإن كان قد اقترب منها من عدة نواح (صفحة ٢١ - صفحة ٢٢ من المقالة المذكورة) .

ويقول الدكتور بدوى وقد رددت عليه بعد إلقائه بحثه في مؤتمر المستشرقين فقلت له أنه توجد نسخة مخطوطة من كتاب «مشكاة الأنوار» في المجموعة رقم ١٧١٢ بمكتبة شهود على باشا باستنبول ، وهذا المجموع تاريخ كتابته سنة تسع وخمسمائة بخط وملك عبد المجيد بن الفضل الغزالي الطبرى ومنه صورة شمسية في دار الكتب المصرية برقم ٣٦٦٢ تصوف ، أى بعد وفاة الغزالي بأربع سنوات ، وفيه الفصل الثالث هذا ، وهذه حجة قاطعة تقضى على دعواه ، إذ لا سبيل إلى

(١) المرجع السابق ٢٨٣ .

(٢) مؤلفات الغزالي للدكتور بدوى صفحة ١٩٧ .

الشك في صحة تاريخ هذه المخطوطة ، فضلا عن أن الغزالي نفسه أشار إلى هذا الفصل في مقدمة المشكاة .

من كل ذلك يتضح لنا صحة نسبة رسالة « المشكاة » إلى الغزالي التي لا تشك في نسبتها لحجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه .

ولعل من أفضل الردود على « مونتجومرى وات » رد استاذنا الجليل أبو العلا عفيفي في مقدمته الرائعة لمشكاة الانوار حيث قال (١) : ذهب « مونتجومرى وات » في مقاله له نشرت في المجلة الاسيورية الملكية سنة ١٩٥٤ إلى أن الفصل الثالث من المشكاة فصل منتحل وأن مؤلفه كان أحد الكتاب المتأثرين بفلسفة ابن سينا في إثبات وحدة الأول على نحو ما فسرها ابن سينا في كتاب النجاة وذلك على أساس أن الإسلام السنّي كان يفهم (التوحيد) دائما بمعنى نفى الشريك لله لا بمعنى الوحدة الذاتية ، وأن هذا المعنى الأخير هو ما ذهب إليه أصحاب الأفلاطونية الحديثة الذين تفوا كل معنى من معاني التعدد في ذات الواحد : وبذلك نفوا الصفات الإلهية .

ويقول الدكتور أبو العلا عفيفي : وهذه كلها مقدمات لا أرى فيها ما يبرر استنتاج الأستاذ « مونتجومرى وات » أن فصل الحجب في جملته منحول ومقحم على رسالة المشكاة ، لأن الغزالي لم ينكر صفات الله في هذا الفصل وإنما أنكر كيفية إطلاقها على الله عند مختلف فرق المتكلمين والفلاسفة ، فهو لم ينكر أن الله عالم قادر مريد متكلم ... الخ ، ولكنه أنكر إطلاق هذه الصفات على الله على النحو الذي يطلقها عليه المشبهة ، ولم ينكر أن الله نور ، ولكنه أنكر أن يطلق هذا الوصف على معبود آخر كالشمس أو القمر أو الكواكب الأخرى ، ولم ينكر أن الله قهار ولكنه أنكر أن تطلق هذه الصفة الإلهية على موجود مادي كالنار عند من يعبدونها .

(١) المشكاة . . صفحة ٣ - وصفاة ٣١ .

ولم يكن هم الغزالي وهو يتكلم عن تنزيه الله أن ينفى الشريك للبارى فقط ، بل كان همه أيضا أن يقرر الوحدة الذاتية لله ، ومشكلة الصفات عند متكلمي الإسلام وفلاسفتهم هي مشكلة الوحدة الذاتية الإلهية .

ثم أن « وات » لم ينتبه إلى أن الغزالي في هذا الفصل حاول أن يحل مشكلة الصفات على أساس صوفي بعد أن بحثها من الوجهة الكلامية والفلسفية « فالواصلون » في اصطلاح الغزالي هم الصوفية أصحاب الذوق الذين يدركون الله ادراكا مباشرا ، ويرونه مقدسا منزها عن جميع ما يخطر ببالنا وصفه به أما « وات » فيقول إن الواصلين الذين يتكلم عنهم الغزالي لا يمتازون عن غيرهم من المحجوبين إلا في أنهم يأخذون بنظرية « المطاع » ، ثم يقول إن فصل الحجب ليس له توطئة قهده في الرسالة ، وأى توطئة للكلام عن الحجب أقوى من ذكر النور وأنواعه ودرجاته : لأن الحجب التى تكلم عنها الغزالي حواجز تخفى هذا النور وتحول دون ظهوره وجلاله ، فإذا ارتفعت الحجب بجميع أنواعها ظهر النور الإلهى القاهر وأحرقت سبحات وجه الله كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم كما يقول الحديث .

وفيم الشك في نسبة الفصل الثالث من الرسالة إلى الغزالي وهو يقرر فيها أنها مؤلفه من ثلاثة فصول - لامن فصلين ، ويشير صراحة إلى حديث الحجب الذى هو موضوع الفصل الثالث ، ويحيل في الفصلين الأول والثانى على الفصل الثالث وفي الفصل الثالث عليهما ؟

ومما يثبت صحة نسبة الفصل الثالث إلى الرسالة أنه ورد برمته في مخطوطة شهيد على التى كتبت سنة ٥٩٠ هـ أى بعد وفاة الغزالي بأربع سنوات .

وأخيرا نرى ابن طفيل يقتبس فقرة طويلة هامة من هذا الفصل في رسالة « حى بن يقطان » من غير أن يشير إشكالا حول صحة نسبته

إلى الغزالي .

فالشواهد كلها مجمعة على أن فصل الحجب في رسالة المشكاة جزء أصيل منها متمم للفصلين السابقين عليه ، وأنه من حيث المادة والأسلوب متمم مع بقية الرسالة غير مقحم عليها .

الترجمة والدراسات حول مشكاة الأنوار :

من أهم الدراسات عن المشكاة مقالا كتبه « فنسك » في « ليدن » سنة ١٩٤٤ في عشر صفحات (١) .

- ويبحث نشره جيردнер W . H . T . Gairdner . بمجلة الاسلام DERISLAM بالإنجليزية بعنوان « مشكاة الانوار ومشكاة الغزالي » سنة ١٩١٤ (٢)

- ويبحث موتنجومري وات بمجلة الجمعية الملكية الاسيوية سنة ١٩٤٩ .

ويقول الدكتور أبو العلا عفيفي في تصديره للكتاب لم تحظ المشكاة من الترجمات إلى اللغات الاوربية الا بثلاثة : الأولى ترجمة الى اللاتينية .

قام بها اسحق بن يوسف الفاسي ، والثانية إلى اللاتينية أيضا وقد قام بها مترجم مجهول ، والثالثة إلى الإنجليزية قام بها جيردнер سنة ١٩٢٤ (٣) .

والواقع أن أستاذنا الجليل الدكتور أبو العلا عفيفي رحمه الله

(١) وفي هذا المقال حاول فنسك أن يثبت أن القسم الأول من مشكاة الأنوار ليس إلا تلخيصا للفصل الخامس من التساع الرابع من تساعات افلوطين وهو بذلك يحاول أن يلقى بعض الشكوك حول صحة نسبة الفصل الأول إلى الغزالي ، لكن النسبة صحيحة .

(٢) W . H . T . Gairdner ; "Al . Ghazali's Miskat al . Anwar and the Gazali -problem" in Der Islam , Vol - 4, 1914 .

(٣) مشكاة الأنوار للغزالي تحقيق د . عفيفي ص ٩

وأسكنه فسيح جناته جانبه الصواب بالنسبة للترجمتين اللاتينيتين ، فالحقيقة أنهما ترجمتان عبرتان لاتينيتان كما ذكر ، فكما أشار الدكتور بدوي في مؤلفات الغزالي (١) لا ترجم مشكاة الأنوار إلى العبرية اسحق بن يوسف الفاسي ، ومن هذه الترجمة مخطوطتان في مكتبة بودلي باكسفورد برقمي ٣٢٥ و ٣٩٢ مخطوطات عبرية ، والاوّل ينقصه آخره ، واسحق بن يوسف الفاسي غير اسحق الفاسي بن يعقوب (المتوفى سنة ١١٠٣ في لوثينا) وهو من علماء التلمود المشهورين ، ويقول اشتبشنشيدر أن المترجم لعله والد موسى بن اسحق الفاسي الذي كان يعيش في سنة ١٢٩٨ م.

وتوجد ترجمة عبرية أخرى لمترجم مجهول ، في مخطوط بالفاتيكان برقم ٢٠٩ وقد فسر DUKES الفصل الثالث من هذه الترجمة العبرية تبعا للمخطوط الناقص I.P.IXPP,P.9 O وكما ذكرنا فقد ترجمها إلى الإنجليزية W.H.T.GAIRDNER,LONDON 1924

ويقع كتاب مشكاة الأنوار (٢) للإمام أبي حامد الغزالي في ثلاثة فصول الفصل الاول في بيان أن النور الحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز مَحْض لا حقيقه له ، والمثال الثاني في بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجر والزيت والنار ، وبيان مراتب الارواح البشرية النورانية ، والفصل الثالث في معنى قوله صلى الله عليه وسلم «ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه من كل من أدركه بصره» وقسمه إلى المحجوبين بمحض الظلمة والمحجوبين بنور مقرون بظلمة ، والمحجوبين بمحض الأنوار .

وموضوع الرسالة إجابة لسؤال من أخ كريم سألته أن يبيث له أسرار

(١) مؤلفات الغزالي للدكتور بدوي ص ١٩٦ .

(٢) طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، سنة ١٣٢٥ هـ ، سنة ١٩٢٩ م ، وسنة ١٣٥٢ هـ ضمن مجموعة "الجواهر الغزالي من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالي" نشرها صبرى الكردى ، وطبع بعلم ١٩٢٢ م ، وطبع طبعة محققة للدكتور أبو العلا عفيفي رحمه الله طبعة الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٤ ، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة

الانوار الإلهية مقرونة بتأويل ما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المروية مثل قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» (النور : ٣٥) . ومعنى تمثيله ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة ، مع قوله صلى الله عليه وسلم «إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة وأنه لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره» .

ونتلمس في هذه الرسالة إرهابات فلسفة اشراقية في فكر الغزالي ومن خلال منهجه في التأويل يحاول أن يستخدم بعض التأويلات الباطنية يكشف من بين ثناياها عن مكنونات إشارات ورموز باطن الآية والحديث .

ويقول الغزالي لصاحب السؤال «ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقى صعباً تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين ، وقرعت باباً مغلقاً لا يفتح إلا للعلماء الراغبين ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ..

.. لكنى أراك مشروح الصدر بالله منزّه السر عن ظلمات الغرور ، فلا أشح عليك في هذا الفن بالإشارة إلى لوازم ولوائح ، والرمز إلى حقائق ودقائق ، فليس الخوف في كف العلم عن أهله بأقل منه في بثه إلى غير أهله .

فمن منح الجهال علماً أضاعه . . ومن منع المستوجبين فقد ظلم

«فائق بإشارات مختصرة وتلوينات موجزة» (١)

فالغزالي يقدم لنا في هذه الرسالة مجرد إشارات وتلوينات مختصرة ولوائح ولوائح سريعة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من العلم كهينة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار على وجه الإسرار» .

وموضوع الفصل الاول من الرسالة في بيان أن النور الحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له «وبيانه بأن يعرف معنى النور بالوضع الاول عند العوام ، ثم بالوضع الثاني عند الخواص ، ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص ، ثم تعرف درجات الأنوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه (١) .

والغزالي يريد أن يؤكد على حقيقة كبرى (هي أن الله تعالى هو نور الأنوار الذي تنبعث منه كل الانوار التي تسمى أنواراً مجازاً لكن النور الحقيقي الحق فهو نور الله تعالى .

ومعنى النور بالوضع الاول عند العوام أنه يشير إلى الظهور وهو عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس ، هذا حده وحقيقته بالوضع الاول ، فالنور عند العوام يقصد به الظهور والظهور أمر إضافي : إذ يظهر الشيء لا محالة لانسان ويبطن عن غيره ، فيكون ظاهراً بالإضافة وباطناً بالإضافة ، وإضافة ظهوره إلى الإدراكات لا محالة ، وأقوى الإدراكات وأجلها عند العوام الخواص ، ومنها حاسة البصر (٢) .

والنور لا يدرك ولا يبصر إلا من خلال عين باصرة تبصره ولهذا اعتبر الغزالي الروح الباصرة ركناً أساسياً في إدراكه لأنها المدركة وبها الإبصار والإدراك .

لهذا كما يقول الغزالي - كان اسم النور بالنور الباصر أحق منه من النور المبصر .

ثم يتدرج الإمام الغزالي في إلقاء الظلال على معنى النور عند الخواص فيقول «وأطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في

الخفاش أن نور عينيه ضعيف ، وفى الأعمش انه ضعيف نور بصره ، وفى الأعمى انه فقد نور البصر ... فقد عرفت بهذا أن الروح الباصرة سمى نورا ، وأنه لم سمى نورا ، وأنه لم كان بهذا الاسم أولى وهذا هو الوضع الثانى وهو وضع الخواص « (١) » .

وبصر العين مع أنه من وسائل الإدراك إلا أنه به أنواع النقصان فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولا يبصر ما بعد منه ، ولا يبصر ما هو وراء حجاب .

ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها ، ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها ، ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية ، ويغلط كثيرا فى إبصاره فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة . (٢)

لكن فى قلب الانسان « عينا » كاملة لا يشوبها شىء من هذه النقائص وهى (العقل) أو « الروح » أو « النفس الانسانى » ، وإذا كانت العين أولى باسم النور من النور المعروف ، فإن العقل أولى باسم النور من العين الظاهرة لسموه عن نقائص العين فالعين لا تبصر نفسها ، ونور العقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه والعقل يدرك القريب والبعيد ، والعقل يدرك ما وراء حجب السموات والملا الأعلى والملكوت الأسنى ، والعقل يدرك ظاهر الأشياء وباطنها وصورها وحقائقها ، ويتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها ، والعقل يدرك العالم كله فالموجودات كلها مجال العقل ، والعقل يدرك المعلومات والمعلومات لا يتصور أن تكون متناهية فإنه مثلا يدرك الأعداد ولا نهاية لها ، بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية ، ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لا يتصور التناهى عليها بل يدرك علمه بالشيء

(١) المشكاة ص ٤٢ وص ٤٣ .

(٢) المشكاة ص ٤٣ .

وعلمه بعلم الشىء ، وعلمه بعلمه ، فقوته فى هذا الواحد لا تقف عند نهاية (١)

وان العين تبصر الكبير صغيرا ، فترى الشمس قرصا صغيرا ، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ؟ وغلط البصر كثير ، والعقل منزّه عن هذه الأخطاء .

ومع أن العقل استحق عن كمالته هذه اسم النور لكن هناك "مالا يقارن العقل فى كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه بالتنبيه كالنظريات ، وانما ينبهه كلام الحكمة فعند اشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة واعظم الحكمة كلام تعالى ومن جملة كلامه القرآن خاصة فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ به الابصار فبالحرى أن يسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس نورا .

فمثال القرآن نور الشمس ومثال العقل نور العين .

وبهذا نفهم معنى قوله تعالى فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا وقوله « قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا » التغابن : ٨ وقوله تعالى قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (النساء : ١٧٤) .

ويتدرج الغزالي فى تجريد النور حتى يصل بنا الى نور من أنوار العالم العلوى عالم الملكوت الذى تعرج اليه نفوس المخلص من الدارجين السالكين عالم الغيب المشحون بالأنوار .

ويقول الغزالي « ولا تظن أنا نعى بالعالم العلوى السموات فإنها علو وفوق فى حق عالم الشهادة والحس ، ويشارك فى ادراكه البهائم . وأما العبد فلا يفتح له باب الملكوت ولا يصير ملكوتيا إلا وببذل فى حقه الأرض غير الأرض والسموات فيصير كل داخل تحت الحس والخيار

(١) المشكاة ص ٤٦ .

أرضه ومن جملة السموات ، وكل ما ارتفع عن الحس فسماءه .

وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتداء سفره إلى قرب الحضرة الربوبية فالإنسان مردود إلى أسفل السافلين ، ومنه إلى العالم الأعلى

وأما الملائكة فإنهم جملة عالم الملكوت عاكفون في حضرة القدوس ومنها يشرقون إلى العالم الأسفل وعالم الشهادة أثر من ذلك العالم ، يجرى منه مجرى الظل بالإضافة إلى الشخص والسبب بالإضافة إلى السبب (١) .

والانوار السماوية التي تقتبس منها الأنوار الأرضية مرتبة بحيث يقتبس بعضها من بعض ، ومرتبة من حيث قربها وبعدها من منبع النور الأول ويشبهه الامام الغزالي بضوء القمر حينما يدخل في كوة بيت فيقع على مرآة منصوبة على حائط فيمكن الضوء منها إلى حائط آخر في مقابلتها ، وينعطف إلى الأرض فيضيئها فأنت تعلم أن ما على الأرض من نور تابع لما على الحائط ، وما على الحائط تابع لما على المرآة ، وما على المرآة تابع لما في القمر ، وما في القمر تابع لما في الشمس : إذ منها يشرق النور على القمر ، وهذه الانوار الأربعة مرتبة بعضها أعلى وأكمل من بعض ، ولكل واحد مقام معلوم ودرجة خاصة لا يتعدها (٢) .

والانوار الملكوتية أيضا وجدت أيضا وجدت على ترتيب وأن المقرب هو الاقرب إلى النور المحض النور الأقصى منبع الأنوار جميعها وهم كثرة لهم ترتيبهم ومقاماتهم لدى واهب الانوار والنور الحق النور الأقصى الأعلى .

ومن هنا يتضح لنا أن اطلاق اسم النور على غير النور الأول مجاز محض فكل ما سواه من حيث ذاته لا نور له لأن نوريته مستعارة من

(١) المشكاة ص ٤٩ : ص ٥١ باختصار .
(٢) المشكاة ص ٥٣ .

غيره ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض والنور الحق كما يقول الغزالي هو الذي بيده الخلق والأمر ، ومنه الإنارة أولا والإدامة ثانيا ، فالوجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله تعالى ، وما «سوى الله» فهو في ذاته عدم محض .

وهذه الحقيقة يراها العارفون عندما يتدرجون في مدارجهم الروحية ، ويفهمون ذوقا معنى قول الله تعالى : «كل شيء هالك إلا وجهه» فهو مالك الملك في الدنيا والاخرة .

ونداءه في عبادة ومخلوقاته يوم الفزع الأكبر ، «لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار» نداء لا يفارق أسمع البشر في هذه الدنيا فهو ليس قاصرا على يوم الفزع الأكبر وإنما هو النداء الابدی الخالد الذي نغنى أنه الوجود الحق كما أنه النور الحق وما سواه عدم محض .

والامام الغزالي حين يقول أن العارفين يعرفون أن الوجود الحق هو الله تعالى في حال تجرّبتهم الصوفية وفي حال وجودهم وفنائهم يشعرون بوحدة لا يرون إلا الوجود الحق الله تعالى وهذه وحدة شهود لا وحدة وجود كما حاول البعض ان يتهم الغزالي بأنه ممن بذروا فكرة وحدة الوجود في الفكر الاسلامي في كتابه المشكاة ، والحقيقة أن الرجل يريد أن يقول أنه لا موجود على الحقيقة إلا الله ، وأن وجود الكون ما هو إلا كانعكاس ضوء القمر على صفحة المرايا المختلفة فالكون لا وجود له إلا كانعكاس وجود الحق فيه .

وكما نعلم أن الغزالي ينكر تماما وجود مادة قديمة للعالم ويفند هذه المزاعم ويؤكد على أن العالم مخلوق حادث من عدم .

رجال «وحدة الشهود» خاطفة سريعة فتنتهي بسرعة كلمح البصر بعدها يصحو العارف ويعود إلى سلطان عقله وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى .

فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله

والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار . ويقدم لذلك كله بمقدمه يبين من خلالها سر التمثيل ومنهاجه وكيفية الموازنة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . ثم يتحدث عن طبقات أرواح الطينة البشرية . فالرموز المذكورة "المشكاة" أو "المصباح" ما هي إلا رموز للأرواح البشرية في رأى الغزالي .

وعن سر التمثيل ومنهاجه يقول الغزالي " اعلم أن العالم الملكوتي عالم غيب إذ هو غائب عن الأكثرين ، والعالم الحسى عالم الشهادة إذ يشهده الكافة . والعالم الحسى مرقاة الى العقل . فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسد طريق الترقى إليه . ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى حضرة الربوبية والقرب من الله تعالى " (١)

وهذا النص القصير يبين لنا أن الغزالي يريد أن يقول أن الأشياء في عالم الشهادة "لها مثال" أو رمز في عالم الملكوت وأن عالم الشهادة مدرج من المدارج الى عالم الغيب . وان الله سبحانه وتعالى هو الذى لا يماثل شئ لانه لا مثال له .

".... وان كان يوجد للصورة إلا نسبة نوع ترتيب على هذه الشاكلة فهي على صورة الرحمن . وفرق بين أن يقال " على صورة الرحمن " وبين أن يقال على صورة الله " لأن الرحمة الإلهية هي التى صورت الحضرة الإلهية بهذه الصورة . ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما فى العالم حتى كأنه كل ما فى العالم أو هو نسخة من العالم مختصرة .

وصورة آدم - أعنى هذه الصورة - مكتوبة بخط الله ، فهو الخط الإلهي الذى ليس برقم حروف ، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقما وحروفا كما تنزه كلامه عن أن يكون صوتا وحرفا ، وقلمه عن أن يكون خشبا وقصبا ، ويده عن أن تكون لحما وعظما . ولولا هذه الرحمة لعجز الأدمى عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه . فلما كان

(١) المشكاة صفحة ٧ .

فى أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد مثل قول العاشق فى حال فرط عشقه «أنا من أهوى ومن أهوى أنا» ولا يبعد أن يفاجئ الإنسان مرآة فينظر منها ولم ير المرأة قط ، فيظن أن الصورة التى رآها بصورة المرأة متحدة بها ، ويرى الخمر فى الزجاج فيظن أن الخمر لون الزجاج ، وإذا صار ذلك عنده مألوفاً ورسخ فيه قدمه استغفر وقال :

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وفرق بين أن يقول : الخمر قدح ، وبين أن يقول : كأنه قدح ، وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالاضافة الى صاحب الحالة (فناء) ، بل «فناء الفناء» : لانه فنى عن نفسه وفنى عن فئانه ، فإنه ليس يشعر بنفسه فى تلك الحال ولا بعدم شعوره بنفسه ، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه ، وتسمى هذه الحالة بالاضافة الى المستغرق به بلسان المجاز اتحاداً أو بلسان الحقيقة توحيدا (١)

وهكذا نستطيع أن نقول مطمئنين أن الغزالي لم يقل بوحدة الوجود ولم يذكر أن الحق هو الخلق وأنهما وجهان للحقيقة واحدة لا فرق بينهما إلا بالاعتبار ولكنه قال أن الله تعالى هو الوجود الحق وما سواه فهو في ذاته عدم محض .

وان توحيد العوام هو قول «لا اله الا الله» وان توحيد الخواص «لا اله الا هو» و «هو» هو كل ما يشار إليه ، ولهذا فان توحيد الخواص كما يقول - الغزالي ، أتم وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه فى الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة ، ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية .

والفصل الثانى من رسالة المشكاة موضوعه بيان مثال المشكاة

(١) المشكاة ص ٥٧ ، وص ٥٨ .

هذا من آثار الرحمة صار على صورة الرحمن لا على صورة الله : فإن حضرة الإلهية غير حضرة الرحمة وغير حضرة الملك وغير حضرة الرتبة . ولذلك أمر بالعباد بجميع هذه الحضرات فقال : " قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس " ولولا هذا المعنى لكان ينبغي أن يقول على صورته « واللفظ الوارد فى الحديث الصحيح » على صورة الرحمن (١) ويستخدم الغزالي منهاجاً خاصاً فى التأويل وضرب الأمثلة وهذا المنهج بعيد كل البعد عن مناهج الباطنية فهو ليس باطنياً ينكر الظاهر وليس حشويًا ينكر أسرار الباطن ولكنه يجمع بين منهجى الظاهر والباطن فى سائر تأويلاته فهو كما يقول « فالذى يجرد الظاهر حشوي ، والذى يجرد الباطن باطنى والذى يجمع بينهما كامل » (٢)

ولهذا فإننا وجدنا الغزالي يبين لنا منهجه من خلال القائه الضوء على مجموعة من الأمثال الموجودة فى القرآن الكريم « فالطور » مثال لكل ماهو ثابت لا يتغير وعظيم لا يستصغر ، ومنه ينفجر الى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات « (٣) ، " والوادي " مثال للموجودات التى تتلقى تلك النفائس العلوية ومنها تنسال إلى قلوب البشر .. وهكذا يستخدم منهجه التأويلى البعيد عن مناهج الباطنية والظاهرية وإنما يؤول القرآن بمنهج ذوقى وكشفى بديع .

والغزالي يدافع عن نفسه من اتهامه بقرينة كاذبه فيقول « لاتظن من هذا النموذج وطريق ضرب المثال رخصة منى فى رفع الظواهر واعتقادا فى إبطالها حتى أقول مثلاً لم يكن مع موسى نعلان ، ولم يسمع الخطاب بقوله « اخلع نعليك » حاش لله ، فان إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ولم يفهموا وجهه ، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية » (٤).

(١) الشكاية . . صفحة ٧١ .

(٢) الشكاية . . صفحة ٧٣ .

(٣) الشكاية . . صفحة ٦٩ .

(٤) الشكاية . . صفحة ٧٣ .

وبعد ذلك يتناول الغزالي جزئية جديدة فى هذا الموضوع وهي مراتب الأرواح البشرية النورانية إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن الكريم ويقسمها الغزالي إلى خمس مراتب هي: الروح الحساس ، والروح الخيالى ، والروح العقلى ، والروح الفكرى ، والروح القدسى النبوى ، والروح الحساس هو الذى يتلقى مدركات الحواس الخمس وهو موجود فى الصبى والبالغ وهو من أصل الروح الحيوانى وأوله .

والثانى الروح الخيالى وهو الروح الحافظ المثبت لما أورده الحواس ويحفظه مخزوناً عنده ليعرضه على الروح العقلى الذى فوقه عند الحاجة إليه . وهذا لا يوجد للرضيع ويوجد له بعد ذلك ، وقد يوجد لدى بعض الحيوانات دون الأخرى ، فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة ، فإذا رأى الخشبة بعد ذلك من بعد هرب .

والثالث الروح العقلى الذى به تدرك المعانى الخارجة عن الحس والخيال ومدركاته المعارف الضرورية الكلية ولهذا فهو الجوهر الإنسى الخاص فلا يوجد عند البهائم ولا عند الصبيان .

والرابع الروح الفكرى وهو الذى يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ويستنتج منها معارف شريفة ، ثم اذا استفاد نتيجتين مثلاً ، ألف بينهما مرة أخرى واستفاد نتيجة أخرى ، ولا يزال يتزايد كذلك إلى غير نهاية .

والخامس الروح القدسى النبوى الذى يخص به الأنبياء وبعض الأولياء وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التى يقصر دونها الروح العقلى والفكرى وإليه الإشارة بقوله تعالى « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به » الآية ٥٢ - الشورى .

.. فاذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فاعلم أنها يجمعتها أنوار لأنها

كذلك فان الروح القدس النبوى يوازى الزيت النقى الصافى الذى بلغ من النقاء والصفاء حدا يجعله يضىء ولو لم تَمَسَّهُ نار .

اذ من الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغنى عن مدد الانبياء ، وفي الانبياء من يكاد يستغنى عن مدد الملائكة .

وإذا كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض : فالجسدى هو الأول ، وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالى ، اذ لا يتصور الخيالى إلا موضوعا بعده ، والفكرى والعقلى يكونان بعدهما ، فبالحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح والمشكاة كالمحل للزجاجة : فيكون المصباح في زجاجة ، والزجاجة في مشكاة .

وإذا كانت هذه كلها انوارا بعضها فوق بعض فبالحرى أن تكون نورا على نور (١) .

ويظهر نور الله تعالى في الانسان واضحا جليا في جميع مراتبه فهو الموجود الوحيد الذى حق الله أن يكون خليفة الله في أرضه وهو المخلوق الوحيد الذى خلقه الرحمن تعالى على صورته .

وبعد ذلك يحاول الغزالي ان يستخدم منهجه التأويلى الذوقى الفريد فى تفسيره لبعض آيات سورة النور المباركة ، وتكاد الأنفاس تتوقف وهى تتابع التأويل الكشفى الشفيف الذى يقدمه لنا الغزالي وهو عندى قمة فى الجمال والشفافية الروحية العظيمة .. استمع اليه وهو يقول فى نص زائد فى الروعة والجمال :

هذا المثال انما يتضح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الانبياء والأولياء لا قلوب الكفار : فإن النور يراد للهداية ، فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة بل اشد من الظلمة :- لان الظلمة لا تهدى الى الباطن ، كما لا تهدى الى الحق وعقول الكفار انتكست ، وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الاضلال فى حقهم فمثالهم كرجل فى بحر لجى يغشاه موج

تظهر أصناف الموجودات ، والجسدى والخيالى منها ، وان كان يشارك البهائم فى جنسها ، لكن الذى للإنسانية منه نط آخر أشرف وأعلى ، وخلق الانسان لأجل غرض أجل وأسمى

أما الحيوانات فلم يخلق ذلك لها إلا ليكون ألتها فى طلب غذائها فى تسخيرها للآدمى .. وانما خلق للآدمى ليكون شبكة له يقتنص بها من العالم الاسفل مبادئ المعارف الدينية الشريفة ، اذ الإنسان إذا أدرك بالחס شخصا معيناً اقتبس عقله منه معنى عاما مطلقا (١) .

وهذه الارواح الخمسة فى موازنة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت ، فالروح الحساس فى موازاة المشكاة لأن أنواره خارجة من عدة ثقب الحواس كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرها أى كما ينفذ النور من المشكاة ، والروح الخيالى يوازى الزجاجة لانها من أصل كثيف بيد ان كلا منهما قابل للترقيق والتصفية والتهديب ، وكما تضبط الزجاجة نور المصباح حتى لا يحجب نوره وتحفظه عن الإنطفاء بالرياح العاصفة ، كذلك فإن الخيال يضبط المعارف العقلية حتى لا تضطرب ولا تنتشر انتشارا يخرج عن الضبط .

والروح العقلى يوازى المصباح فالروح العقلى يمكننا إدراك المعارف الإلهية الشريفة تماما كالمصباح الذى يمثل نوره النور الجسدى .

والروح الفكرى يوازى الشجرة لان الفكر بمثابة الشجرة ذات الفروع والأغصان الكثيرة تزدهر كلها من جذر واحد وأصل واحد تماما كالجذر من الشجرة ولان شجرة الزيتون بالذات زيتها أخلص وأنقى الزيوت وأرقها وأصفاها ، ويختص زيتها بخاصية زيادة الإشراف فشجرة الزيتون توازى الروح الفكرى ، وهى شجرة مباركة لأنها كثيرة الثمر ، ولان شعب الافكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات ولهذا فهى لا شرقية ولا غربية .

من فوقه موج من فوقه سحب ظلمات بعضها فوق بعض (النور : ٤).

يقول الامام الغزالي «البحر واللجى هو الدنيا بما فيها من الاخطار المهلكة والاشغال المردية والكدورات المعيبة ، والموج الاول موج الشهوات الداعية إلى الصفات البهيمية والاشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية حتى أنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الانعام ، وبالحرى أن يكون هذا الموج مظلماً لان حب الشئ يعمى ويصم .

والموج الثانى من الصفات السبعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر .

وبالحرى ان يكون مظلماً لان الغضب غول العقل ، وبالحرى أن يكون هو الموج الأعلى لان الغضب فى الأكثر مسئول على الشهوات حتى إذا هاج اذهل عن الشهوات واغفل عن اللذات المشتهاة . وأما الشهوة فلا تقاوم الغضب الهائج أصلاً .

واما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة ، والظنون الكاذبة ، والخيالات الفاسدة التى صارت خجياً بين الكافرين وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل : فإن خاصية السحاب ان يحجب اشراق نور الشمس . (١)

وهذا النص الغزالي المشرق بالكلمات الصادقة الروحانية الشفيفة يبين لنا بصدق كيف صور لنا حجة الاسلام الظلمة فى مقابل النور إننا نكاد نرى كل شئ من خلال الظلمة ، نكاد نلمس البحر اللجى العميق الذى لا ساحل له ، تلمسه بحواس البصيرة ، وهذه الظلمات يجليها لنا الغزالي حتى نتعقبها ، ظلمات حب الدنيا واكدارها ، وامواج الشهوات البهيمية والحسية ونوازع النفس الدنية من غضب وحقد وحسد وعداوة وبغضاء وتكبر وحب للمال والولد .

يقول الغزالي «واذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحرى ان تكون ظلمات بعضها فوق بعض واذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الاشياء القريبة فضلاً عن البعيدة ، ولذلك حجب الكفار عن معرفة عجائب احوال النبى صلى الله عليه وسلم مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل ، فبالحرى ان يعبر عنه بأنه لو اخرج يده لم يكده يراها .

واذا كان منبع الانوار كلها من النور الاول الحق ، فبالحرى أن يعتقد كل موحد ان من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور (النور : ٤) . فيكشفك هذا القدر من اسرار هذه الاية فاقنع به . (١)

وهذا فيض ربانى عظيم أتاه الله حجة الاسلام فأثار له الطريق فعرف معنى نور الحق وابعد عن ظلمات النفس المستغرقة فى بحر عميق كله ظلمات بعضها فوق بعض .

ونجد فى هذه الرسالة بصمات مذهب الاشراق وحكمة المشاركة الذوقية التى تعتمد فى حكمتها على البرهان والاستنباط .

كذلك استطاع ان يفرق بين عالم النور وعالم الظلمة ولكن الغزالي (٢) لم يبين على هذه التفرقة مذهباً ثانياً فى طبيعة الوجود كما بنى ثنوية الفرس ، بل على العكس نقض مذهبهم فى المشكاة وغيرها ، واعتبرهم جملة المحجوبين ، ولعله ومن سبقه من كبار متصوفة الإسلام كانوا أكثر تأثراً فيما قالوه عن النور والادراك الذوقى المنبعث من العالم النورانى بالانفلاطونية الحديثة التى وردت إليهم ملخصة فى كتاب الرهبية المنسوب خطأ الى ارسطو .

والفصل الثالث فى المشكاة يدور حول معنى قوله صلى الله عليه وسلم إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره ، وفى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها

سبعين الفا .

ويؤكد الغزالي على أن المحجوبين من خلق الله ثلاثة اقسام : منهم من حجب بمجرد الظلمة ، ومنهم من حجب بالنور المحض ، ومنهم من حجب بنور مقرون بظلمة .

والقسم الاول :

المحجوبون بمحض الظلمة وهم الملاحدة الذين كفروا بالله تعالى ورسله وهؤلاء عند الغزالي صنفان (١) (صنف تشوف الى طلب سبب لهذا العالم فأحاله الي الطبع . والطبع عبارة عن صفة مركوزة في الأجسام حالة فيها وهي مظلمة اذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا مما يصدر منها وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضا والصنف الثاني : هم الذين شغلوا بأنفسهم ولم يفرغوا لطلب السبب أيضا ، بل عاشوا عيش البهائم ، فكان حجابهم نفوسهم الكدرة ، وشهواتهم المظلمة ، ولا ظلمة أشد من الهوى والنفس : ولذلك قال الله تعالى «أفأريت من اتخذ إلهه هواه» الجاثية : ٢٣ .

فهؤلاء عبيد اللذة ، يعبدونها ويطلبونها .. وأي ظلمة أشد من ذلك ؟ فقد حجب هؤلاء بمحض الظلمة .

وفرقة رأت أن غاية السعادات هي الغلبة والاستيلاء والقتل والسبي والأمر .. وهم محجوبون بظلمة الصفات السبعية .. وفرقة ثالثة رأت أن غاية السعادات كثرة المال واتساع اليسار .

وفرقة رابعة زعمت أن أعظم السعادات في اتساع الجاه والصيت وانتشار الذكر .. ويدخل في جملة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم «لا إله إلا الله» ، لكن ربما حملهم على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين وتجميل بهم أو استمداد من مالهم ، أو لأجل التعصب لنصرة مذهب الأباء

(١) المشكاة ص ٨٥ : ص ٨٧ باختصار .

فهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم الكلمة من الظلمات إلى النور ، بل «أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» (البقرة : ٢٥٦) أما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءت سمته وسرته حسنته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية .

ومن ذلك النص يتبين لنا أن القسم الاول وهم المحجوبون بالظلمة المحضة وهم الملاحدة الذين أنكروا الله والبعث والحساب والنبوة ، واعتبروا الإنسان مادة فقط وفسروا الكون تفسيراً مادياً محضاً وقالوا (إن هي الا حياتنا وما يهلكنا إلا الدهر) .

ومع الماديين الملاحدة يدخل في دائرتهم أصحاب النفوس الكثيفة وأصحاب الملذات الذين يعيشون الحياة طولا وعرضا كالبهائم ، فهؤلاء أقصى غاياتهم ، وأهدافهم في الحياة قضاء ملذاتهم ومتعهم الرخيصة .

كذلك يدخل في دائرة هؤلاء المحجوبون بالظلمة المحضة ذوي النزعات الوحشية ومحبي القتل والاستيلاء والغلبة والقهر وهؤلاء منزلتهم منزلة السباع والوحوش الضارية .

كذلك كل من رأي أن غاية الغايات المال والجاه والشهرة .. فكل هؤلاء نفوسهم مظلمة ، وكل هؤلاء محجوبون عن الله تعالى بمحض الظلمة .

والقسم الثاني :

هم المحجوبون بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف : صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم من مقاييسات عقلية فاسدة والصنف الأول المحجوبون بنور مشوب بظلمة حسية وهم طوائف شتى أولهم عبدة الأوثان ، وآخرهم الثورية ،

كالمجسمة والكرامية الذين عبدوا الها متجسما جالسا على العرش
أوالذين يشبتون لله تعالى الجهة المخصوصة جهة الفوق فهم يتفون
الجسمية الا الجهة المخصوصة بالفوقية .

ثم هناك صنفا ثالث وهم المحجوبون بالأنوار الالهية مقرونة بأدلة
عقلية فاسدة وهم اصحاب الصفات أو الصفاتية الذين يشبتون لله صفات
كالسمع والبصر والكلام ويقيسونها على صفاتهم الانسانية وربما قال
بعضهم كلامه صوت وحرف ككلامنا وبعضهم قال لا بل هو كحديث
نفسنا ولا هو صوت ولا حرف ، فهم محجوبون بجملة من الأنوار مع
ظلمة المقاييس العقلية .

والقسم الثالث :

المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف منهم الفلاسفة الذين اجتنبوا
تعريفه بصفات البشر ونزوهه عن هذه الصفات وعرفوه بأنه مقدس منزّه
عن معاني الصفات وأن أثره في الكون واضح فهو «محرك السموات
ومديرها» .

وصنف آخر من هؤلاء المحجوبين ترقوا عن هذا الصنف وقالوا إن
تحريك الأفلاك يكون عن طريق ملك يقوم بالفعل تعيدا . وطاعة لله
تعالى ولعلنا نجد في رأي هؤلاء الفلاسفة تأثرا بأرسطو ومذهبه المركب
بآراء افلاطينية محدثة ، يقول الغزالي عن هذا الصنف والصنف الثالث
ترقبوا عن هؤلاء وقالوا : إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغي أن
يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة من عبد من عباده يسمى ملكا
، نسبته إلى الأنوار الالهية المحضة نسبة القمر في الأنوار المحسوسة ،
فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك ، ويكون الرب تعالى
محركا لكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة .. فهؤلاء الأصناف كلهم
محجوبون بالأنوار المحضة (١) .

(١) مشكاة ص ٩١ .

فعبدة الأوثان عرفوا على العموم أن لهم ربا ولكن حجبتهم ظلمة الحس
فصنعوا من المعادن النفيسة تماثيل اتخذوها آلهة ومنعهم من معرفة الله
ظلمة الحس ذلك أن الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحاني العقلي .
والطائفة الثانية من المحجوبين بنور مشوب بظلمة طائفة اعتقدوا بأن
لهم ربا وهو أجمل الأشياء .

فإذا رأوا إنسانا جميلا أو شجرا جميلا أو فرسا بديعا أو ما شابه
ذلك سجدوا له وقالوا هذا هو ربنا ، فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع
ظلمة الحس .

وطائفة ثالثة قالوا ينبغي أن يكون ربنا نورانيا في ذاته صاحب
سلطان في نفسه فعبدوا النار واتخذوها ربا ، وهم محجوبون بنور
السلطنة والبهاء .

وطائفة رابعة عبدوا ما هو موصوف بالعلو والارتفاع وكان معروفا
بينهم الاشتغال بعلم النجوم وتأثيرات النجوم في الحياة فعبدوا النجوم
والكواكب ، فهؤلاء محجوبون بنور العلو والاشراق والاستيلاء ، وهم
من أنوار الله تعالى .

وطائفة خامسة عبدوا الشمس وقالوا هي أكبر فهم محجوبون بنور
الكبرياء مع بقية الأنوار مشوبا بظلمة الحس .

ويقول الغزالي «وهناك طائفة سادسة عبدوا النور المطلق الجامع
لجميع أنوار العالم وزعموا أنه رب العالم والخيرات كلها منسوبة إليه .
ثم رأوا في العالم شرورا فلم يستحسنوا اضافتها الى ربهم تنزيها له
عن الشر ، فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم الى النور
والظلمة وهم الثنوية» (١) .

والصنف الثاني المحجوبون ببعض الأنوار مشوبا بظلمة الخيال

.. وبعد سرده لآراء المحجوبين من المشبهة من المتكلمين والفلاسفة المسلمين المتأثرين بأرسطو والأفلوطينية المحدثه ورفضه لآرائهم ومنها قولهم ان الله هو المحرك عن طريق «عقل» محرك للأفلاك لانه يرتضى رأى «الواصلين» وهو «المطاع» هو الأمر الإلهي القديم «لله الأمر من قبل ومن بعد» «الاله الخلق والأمر» «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره» «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون».

والآيات الشريفة السابقة تشير إلى أن أمر الله «المطاع» قديم قدم الله ، والأمر الإلهي ليس هو الله ، ولا هو غيره وعلى ما يقول الأشاعرة ان الله عالما بعلم وقادر بقدره ومتكلم بكلام ، ولكن علمه وقدرته وكلامه غير ذاته تعالى .

ولهذا فإن فكرة الغزالي وقوله «بالمطاع» هي فكرة جذورها أشعرية بالدرجة الأولى وتتصل اتصالا مباشرا في رأيهم في الكلام الإلهي وفي القرآن كلام الله تعالى ووجهه إلى نبيه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم ، ففكرته إسلامية رُصيلة .

والأمر الآلهي «المطاع» قديم قدم الله تعالى لأنه من كلامه سبحانه وتعالى القديم .

ونسبة هذا المطاع إلى الله تعالى كنسبة الشمس إلى النور المحض .

ويقول الغزالي : ان هذا «المطاع» موصوف بصفة تنافى الوجدانية المحضة والكمال البالغ لسر لا يحتمل هذا الكتاب كشفه : وان نسبة هذا (المطاع) نسبة الشمس في الأنوار فتوجهوا من الذي يحرك السموات ومن الذي يحرك الجرم الأقصى ، ومن الذي أمر بتحريكها إلا الذي فطر السموات وفطر الجرم الأقصى وفطر الامر بتحريكها ، فوصلوا إلى موجود منزّه عن كل ما أدركه بصر من قبلهم ، فاحرقت سبحات وجهه الأول الأعلى جميع ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم فإذا وجدوه مقدسا منزها عن جميع ما وصفناه من قبل (١) .

وينبغي أن يفهم جيدا قول الغزالي : إن هذا «المطاع» موصوف بصفة تنافى الوجدانية المحضة والكمال البالغ ذلك أن الوجدانية الخالصة لا تحتل التعدد اذ لاتعدد فيها فالوجدانية من صفات الله تعالى وحده أما الأمر الإلهي «المطاع» مبدأ التعدد في الوجود .

ولهذا قال : إن «المطاع» موصوف بصفة تنافى الوجدانية المحضة وهنا نلاحظ أن الغزالي كان منزها لله تعالى وموحدا خالصا ولم يفهم بعض المفكرين فكرة المطاع عند الإمام الغزالي .. ولهذا يقول ابن طفيل في رسالته حتى بي يقظان : وقد توهم بعض المتأخرين (لعله يقصد ابن رشد) من كلام الغزالي الواقع في آخر كتاب المشكاة أمرا عظيما أوقعه في مهواة لا مخلص منها وهو قوله بعد ان ذكر اصناف المحجوبين بالانوار ثم انتقله إلى ذكر الواصلين انهم وقفوا على ان هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافى الوجدانية المحضة .

فأراد أن يلزمه من ذلك بأنه يعتقد أن الأول الحق سبحانه في ذاته كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا (١) فالغزالي يقصد بالموجود العظيم المتصف بصفة تنافى الوجدانية المحضة يقصد به «المطاع» ولا يقصد به الله سبحانه وتعالى والمطاع مجلى من مجالى الحق ومن هنا نفهم أن الغزالي لا يتبنى ولا يعتنق نظرية الصدور عند الحكماء والأفلوطينيين المحدثين .

وقد كانت رسالة المشكاة رسالة كشفية ذوقية إشراقية رائعة تعد إلهامه كبرى للفلسفة الإشراقية عند فلاسفة الاشراق الذين أتوا من بعده وخاصة الفيلسوف الإشراقي الكبير قطب الدين الشيرازي .

وكان الغزالي صادقا مخلصا حين قال في ختام رسالته .. فهذا ما حضرني في جواب هذه الأسئلة مع أن السؤال صادقى والفكر منقسم ، والخاطر متشعب ، والهم إلى غير هذا الفن منصرف .

(١) حتى بن يقظان لابن طفيل صفحة ٦٤ .

(١) المشكاة : ٩٢ .

ومقترحى عليه أن يسأل الله تعالى العذر عما طغى به القلم ، أو
زلت به القدم فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطير واستشفاف الأنوار
الإلهية من وراء الحجب البشرية عسير غير يسير (١).

٣ - كيمياء السعادة

أصل هذا الكتاب بالفارسية (كيمياء السعادة والعلوم) (٢) والأصل
الفارسي كبير يشابه إحياء علوم الدين ويقال انه ترجم فيه كتاب الإحياء
فالأصل الفارسي يتألف من أربعة أركان :

(الركن الاول) فى العبادة وهو عشرة أصول : الأصل الأول اعتقاد
أهل السنة والثانى طلب العلم ، والثالث الطهارة ، والرابع الصلاة ،
والخامس الزكاة ، والسادس الصيام ، والسابع الحج ، والثامن تلاوة
القرآن ، والتاسع الأذكار والدعوات ، والعاشر ترتيب الأوراد .

(الركن الثانى) فى آداب المعاملة وهو ايضا عشرة أصول : الأول
فى آداب الطعام ، والثانى آداب النكاح ، والثالث آداب الكسب
والتجارة ، والرابع طلب الحلال ، والخامس آداب الصحة ، والسادس
آداب العزلة ، والسابع آداب السفر ، والثامن آداب السماع والوجد ،
والتاسع آداب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعاشر رعاية الزعمية

(١) المشكاة صفحة ٩٣ .

(٢) ويشير الدكتور عهد الرحمن بدوى بأن النص الفارسي قد طبع فى كلكتا بدون تاريخ .
وطبع حجر فى لولكنو سنة ١٢٧٩ هـ ، سنة ١٢٨٢ هـ ، سنة ١٢٨٨ هـ ، سنة ١٢٩١ هـ .
وفى بهماى سنة ١٨٨٣ م .

وقد ترجم النص الفارسي الى التركية بواسطة مصطفى الوانى المتوفى سنة ١٥٩١ .
وترجم إلى الانجليزية عن الترجمة التركية بواسطة هـ . أ . هومس طبعة نيويورك ١٨٧٣ .
وقد ذكر المرتضى فى التحف السادة المتقين الى أنه يوجد الى جانب النص الفارسي الكبير .
نص عربى صغير فى أربعة كرايس وعنده نسخة منه .

وقد طبع النص العربى ضمن مجموعة رسائل طبعها صبرى الكردى ، القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ .
سنة ١٣٤٣ هـ .

وتسيير الولاية .

(الركن الثالث) فى رؤية عقبات الطريق وهو أيضا عشرة أصول :
الاول فى رياضة النفس ، الثانى علاج الشهوة ، الثالث فى شر الكلام
وأفات اللسان ، والرابع فى الغضب والحقد والحسد ، الخامس علاج حب
الدنيا ، والسادس علاج حب المال ، السابع علاج حب الجاه والحشمة ،
والثامن علاج الرياء والنفاق فى العبادة ، والتاسع علاج الكبر
والعجب ، والعاشر علاج الغرور والغفلة .

(الركن الرابع) فى المنجيات ، وهو أيضا عشرة أصول : الاول فى
التوبة والبعد عن المظالم ، والثانى فى الشكر والصبر ، والثالث فى
الخوف والرجاء ، والرابع فى الفقر والزهد ، والخامس فى التوحيد
والتوكل ، والسادس فى محبة الحق .

ورسالة كيمياء السعادة توضح كيمياء السعادة الجوانية أو الباطنية
والنفسية التى تقابل الكيمياء المادية أو الظاهرية يقول الغزالي كيمياء
السعادة لا تكون الا فى خزائن الله سبحانه وتعالى ، ولا تلتصق الا من
حضرة النبوة وكل من طلبها من غير هذا السبيل فقد أخطأ الطريق . ومن
هنا كان لا بد من يريد أن يظفر بهذه السعادة ، أن يتعزى من كل صفات
النقص ويتزيا بكل صفات الكمال .

يقول الغزالي فى رسالة "كيمياء السعادة" أعلم أن سعادة كل شئ
لذته وراحته ، ولذة كل شئ تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شئ ما خلق
له فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذة الأذن فى الاصوات الطيبة ،
وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه
وتعالى ، لأنه مخلوق لها ، وكل ما لم يعرفه ابن آدم اذا عرفه فرح به ،
مثل الشطرنج اذا عرفها فرح بها ، ولو ينهى عنها لم يتركها ، ولا يبقى
عنها صبر وكذلك اذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم
يصبر عن المشاهدة لأن لذة القلب المعرفة ، وكلما كانت المعرفة أكبر

كانت اللذة أكبر ، ولذلك فأن الانسان اذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحا ، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ، لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم أثر من آثار صنفته فلا معرفة أعز من معرفته . ولا لذة أعظم من لذة معرفته وليس منظر أحسن من منظر حضرته ، وكل لذات وشهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهى تبطل بالموت ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب ، فلا تبطل بالموت لان القلب لا يهلك بالموت ، بل تكون لذته أكثر ، وضوؤه أكبر ، لانه خرج من الظلمة الى الضوء .

وفى هذا النص نلاحظ أن الغزالى يؤكد على أمر هام وهو أن معرفة الله هى أعظم وأعز معرفة ، ومعرفته متعلقة بالقلب محل النور ، وفى هذا النص أيضا اشارة الى المعرفة الصوفية عن طريق الذهب فى متاع الدنيا وشهوات النفس التى تبطل بالموت أما المعرفة الأبدية فهى التى تتم عن طريق القلب لان القلب لا يهلك بالموت .

والغزالى يرى أن عين القلب تستطيع معرفة الله ليس فقط فى حال الموت أو فى حال النوم وانما ايضا تستطيع عين القلب أن تنفتح فى حال اليقظة وذلك عند من جاهد نفسه بالرياضة الروحية وتخلص من سائر الأخلاق المذمومة فإذا خلا العبد إلى نفسه ، وعطل طريق الحواس ، وفتح عين باطنه وسمعه ، ودأب على ذكر الله بقلبه لا بلسانه ، حتى يصبح ولا خير له من نفسه ولا من العالم ، ولا شئ يملك عليه باطنه غير مشاهدة الذات الإلهية فهناك عين القلب ، ويصبح الانسان قادرا على أن يبصر فى اليقظة ما يبصره فى النوم ، وهناك يشاهد الحقائق العليا ، والمناظر الجميلة الجليلة التى لا يمكن شرحها ووصفها وينكشف له ملكوت السموات والارض إذ أن حجاب القلب عن مطالعة ذلك العالم راجع إلى انه لم يكن قد فرغ بعد من شغل الحواس والاشتغال بالعالم المادى ، والإقبال على ما فيه من لذات حسية لا تلبث أن تعرض له حتى تزول . وكثيرا ما تعقب له آلاما .

هكذا يبين لنا الغزالى أن طريق السعادة الحقة طريق قلبى ذوقى يشعر فيه الانسان "وإن الى ربك المنتهى" .

وان السعادة العظمى حين يفرغ الإنسان من الاشتغال بالمادة واللذات المحسية الزائلة وينشغل فى ذكر الله وعبادته ، وحين يتخلى عن الأخلاق المذمومة ويتخلى بالصفات المحمودة ، وحين يخلع عن قلبه الهوى والدنيا ويظهر نفسه من أدران الحقد والحسد والغل وسائر الاخلاق السيئة . ، وقتها يشعر الانسان بالسعادة الروحية الحقة الخالصة . لا السعادة المادية الزائلة .

٤ - كتاب المضمون به على غير أهله : (١)

هذا الكتاب نسب خطأ للإمام الغزالى لانه يحوى أفكار ومبادئ بعيدة كل البعد عن أفكار ومبادئ الغزالى .

فعمادة الكتاب لا يعقل أن تصدر عن حجة الاسلام الامام الغزالى فقد فند هذه الافكار الغريبة عن فكره الإسلامى الصحيح فى العديد من كتبه ولا يصح منه أن يعتقد ما دحضه وفنده من قبل .

فمثلا : الامام الغزالى الذى هاجم فى تهافت الفلاسفة فكرة تقدم العالم وأن القرآن صفة قديمة نجد فى الكتاب المنسوب إليه زورا يقول (٢) "الزمان لا يكون محدودا ، وخلق الزمان أمر محال ، فالיום هو الكون الحادث فى اللغة ، وأيام الله حيث قال "وذكرهم بأيام الله" : مراتب مخلوقاته ومصنوعاته ومبدعاته من وجوه . منها قوله فى أربعة ايام يوم مادة السماء وصورتها ويوم كواكبها ويوم نفوسها ، وقوله خلق الارض

(١) طبع ضمن مجموعة بالقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ ، سنة ١٣٠٩ هـ ، وبهامش «الانسان الكامل» للجيلى سنة ١٣٢٨ بالقاهرة ، وسنة ١٣٦٨ هـ طبعة صبيح وشرح الكتاب عبد الله بن عبد المجيد العبيدى «ت سنة ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨م» وطبع بالقاهرة سنة ١٩١٣م .
(٢) المضمون به على غير أهله طبعة القاهرة ١٣٠٩ هـ (مصر المحروسة) ص ٢ وما بعدها .

فى يومين . المادة والصورة ومادة السماوات ومادة بروجها صورة واحدة ، ومادة الارض مادة مشتركة بين ازواج وفحول وهى اخس لأنها مؤسمة تقبل كل ناكح .

وكما نعلم أن الغزالي رد على الفلاسفة والمتكلمين القائلين بقدم العالم فكيف يتناقض مع نفسه ويساير من كفرهم من قبل فى قولهم بقدم العالم .

وقد جانب الإمام الجليل ابن تيمية الصواب وأخطأ الرأى حين قال فى نقض المنطق ؛ وأما المضمون به على غير أهله ، فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذبون ثبوته عنه ، وأما أهل الخبرة به وبحالهم فيعلمون أن هذا كله كلامه ، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضا . ولكن كان هو وأمثاله - كما قدمت - مضطرين لا يشبتون على قول ثابت ، ولأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوقون به الى طريقة خاصة الخلق ، ولم يقدر لهم سلوك طريقة خاصة هذه الامة الذين ورثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم - العلم والايمان ، وهم أهل حقائق الايمان والقرآن . وبهذا كان الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح يقول - فيما رأيته بخطه - : أبو حامد كثير القول فيه ومنه . فأما هذه الكتب - يعنى المخالفة للحق - فلا يلتفت إليها ، وأما الرجل فيسكت عنه ويفوض أمره الى الله (١) .

لقد كان ابن تيمية متحاملاً على الغزالي أكثر من اللازم حين ذكر أن الخبرة به وبحالهم يعلمون أن هذا كله كلامه لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضا .

والحقيقة أن هذا الكتاب لا يمثل روح الغزالي ولا اسلوبه ، ولا فكرة ولا مبادئ حجة الإسلام . فكل ما فيه أنكره الغزالي فى كتبه إنكاراً تاماً فكيف يعتنق ما يكفره . ويناقض ما كتبه فى التهافت والمقاصد .

(١) نقض المنطق لابن تيمية طبعة القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩١٥ م صفحة ٥٥

كذلك نجد أن كتاب "المضمون" يحتوى على أن "القرآن صفة قديمة لا مثل له" ويقرر "نفى الصفات" فيقول الكتاب المنسوب خطأ "فصل : يتخيل بعض كثرة فى ذات الله تعالى عن طريق تعدد الصفات ، وقد صح قول من قال فى الصفات : "لا هو ولا غيره؛ وهذا التخيل يقع فى توهم التغير ، ولا تغاير فى الصفات . ومثال ذلك أن الانسان يعلم صورة الكتابة وله علم بصورة "بسم الله" التى تظهر تلك الصورة على القرطاس ، وهذه صفة واحدة ، وكما لها ان يكون المعلوم تبعاً لها ، فإنه اذا حصل العلم بتلك الكتابة ظهرت الصورة على القرطاس ، وهذه صفة واحدة ، وكما لها أن يكون المعلوم تبعاً لها ، فإنه اذا حصل العلم بتلك الصفة من حيث أن المعلوم اتكشف بها يقال لها علم ، ومن حيث ان الالفاظ تدل عليها يقال كلام ، فان الكلام عبارة عن مدلول العبارات . ومن حيث أن وجود المعلوم تبع لها يقال لها القدرة ، ولا تغاير ها هنا بين العلم والقدرة والكلام .

فان هذه صفة واحدة فى نفسها ، ولا تكون هذه الاعتبارات الثلاث واحدة (١) .

وبالنسبة لرؤية الله نجد أن الكتاب يقرر ورود الاذن اطلاق ذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت ربي فى أحسن صورة ، وهذا مما ورد فى الأخبار ان الله خلق آدام على صورته (٢) .

ومن ذلك كله يتضح لنا أن كتاب المضمون به على غير أهله ليس للإمام الغزالي .

فالغزالي صاحب تهافت الفلاسفة ، ومقاصد الفلاسفة ، وفضائح الباطنية ، والمنقذ من الضلال ، وإحياء علوم الدين ، والأربعين فى اصول الدين ، ومنهاج العابدين إلى جنه رب العالمين ، . . والغزالي "حجة الاسلام" لا يمكن أن يقول بعملية الخلق من عدم وان الزمان قديم ، ويؤيد

(١) ، (٢) المضمون ص ٥ ، ص ٦ ، ص ١٦ .

الكفر ، وقد قاسى الامام فخر الدين الرازى شيئا من هذا القبيل ، وقد تعددت هذه الدسائس على كتب المؤلفين بفعل خصومهم والناقمين عليهم ، حتى وضع على بن محمد المصرى قاتمة باسمائهم . واذا كان الأمر كذلك ، فلا ينبغي أن نعجب من وقوع هذا فى حق الغزالى أيضا ، وقد أكد المستشرق الألمانى " جولد زيهر " أن ذلك وقع بالفعل .

واعتقد الآن بعد هذه النظرة الشاملة نستطيع أن ننتهى إلى نتيجة مناسبة وهى أنه وضح لنا بلا ادنى شك أن "المضنون به على غير أهله "نسب خطأ وزورا الى الامام الغزالى وأنه ليس من كتبه ولا من تأليفه .

مذهب الصدور الفيضى ، كيف ينفى الصفات وهو الذى نقده الفلاسفة والمتكلمين والباطنية فى هذه الاقوال وبين تهافتهم وأخطائهم العقديّة والفلسفية فى قولهم بأن الله يعلم الكلّيات ولا يعلم الجزئيات ، وقولهم أن العالم قديم ، وقولهم بجسدية العالم الآخر .

ولا شك عندنا أن هذا الكتاب مدسوس على الامام الغزالى رضى الله عنه يقول السبكى فى طبقات الشافعية (١) "المضنون به على غير أهله " معاذ الله أن يكون له لأنه اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى العلم القديم بالجزئيات ، ونفى الصفات ، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالى قائلها وأهل السنه أجمعون فكيف يتصور أنه بقولها ؟ وهو عندى وفى المسامرة - انه من تأليف على بن السبىتى وكذلك صرح صاحب "تحفة الارشاد" بانه موضوع عليه ، وقد صنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالى كتابا فى رده وتوفى سنه خمسين وسبعمئة " .

لقد كان للغزالى اعداء أرادوا به سوءا قدسوا عليه ما يكره ونسبوا إليه افكارا هاجمها من قبل هجوما عنيفا وبين خطأهم وكشف عن ضلالها يقول الأستاذ الدكتور أحمد فريد الرفاعى (٢) كم دبت كتب ووضعت على غير اصحابها . لمحاربتهم والتشهير بهم ، كما فعلوا فى حق أبى بكر الرازى ، إذ زوروا عليه كتابا فى تكذيب الاعتقاد بالأولياء ، وقد حدث مثل هذا فى حق الشعرانى إذ تناول أحد خصومه كتابه "البحر المورود" فحذف منه فصولا ووضع بدلها ما تشتم منه ربيع الكفر ، ثم نشره منسوباً الى الشعرانى ، باعتباره كتابه الحقيقى ، فاضطر الشعرانى فى سبيل الدفاع عن نفسه أمام علماء القاهرة ، أن يبرز النسخة الاصلية التى لديه عن كتابه ، والتى تحوى تواقيعهم ، وقد حدث هذا أيضا فى حق أبى عيسى ، وتصدى الشعرانى للدفاع عنه ، وكان بعض خصومه قد دس عليه فى كتابه "الفتوحات" ما يدل على

(١) طبقات الشافعية للسبكى ج ٤ ص ١٣١ .

(٢) كتاب الغزالى للدكتور الرفاعى ج ٢ صفحة ٢١٣ .

« المبحث الثانى »

مشكلة المعرفة اليقينية عند الغزالى

أولا : منهج الشك عند الغزالى

١ - البحث عن الحق واليقين :

الحقيقة أن البحث عن الحق كان ديدن الغزالى منذ عنفوان شبابه ، وقبل بلوغه العشرين .

فقد تميز الغزالى بعقلية ناقدة فذة تستطيع ان تحلل الأشياء منطقيا ليصل من المقدمات إلى نتائج صائبة .. يقول في منقذه من الضلال «إن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب ، بحر عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون . ولم أزل في عنفوان شبابى - منذ راهقت البلوغ - أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور لأخوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكله ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أعادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلميا إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأنجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدى ، من أول

أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا (١) .

ولا شك عندنا أن الغزالى كان يحاول البحث عن الحقيقة بكل المدارك والمعارف الحسية والعقلية والقلبية . ولأنه عقلية من طراز فريد للغاية فإنه كان يريد المعرفة الحقيقية والعلم الصحيح بحقائق الأمور . ويقول فى ذلك إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ماهى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنه لو تحدى باظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً . . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس يعلم يقينى (٢) .

انه يريد العلم الذى يحدث معه الأمان النفسى والعقلى والقلبى العلم الذى لا يورث الشك والإنكار بل الطمأنينة والاستقرار . وكى يصل الى الحق ويطمئن الى معرفته كان لابد من أن يستخدم منهج الشك ليصل الى حقيقة والأمان .

ولقد كان الغزالى يعيش فى عسر يوج بالفرق والفتن مما ساعده على بزوغ الشك المنهجى عنده فهناك فرق متعددة كل فرقة منها ترى أنها على الحق وأنها الناجية وأن منهجها هو الذى يؤدى بالانسان الى الامان والطمأنينة .

لكن ماهى وسيلة الإدراك والمعرفة هل يمكننا بالحس أن نصل الى

(١) المنقذ من الضلال للغزالى صفحة ١٦ .

(٢) المنقذ من الضلال للغزالى صفحة ٣٧ .

معرفة حقة يقينية لا شك بعدها . هل يمكن للعقل أن يصل بالإنسان الى بر الأمان أم أن هناك وسائل أخرى للمعرفة الحقة اليقينية .

وبالنسبة للمحسوسات يقول الغزالي حين اختبارها "أقبلت بجهد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ، فانتهى بي طول التشكيك الى أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر وهي تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ؟ ثم بالتجربة والملاحظة ، بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدرج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه اكبر من الأرض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته " فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات " .

إن هذا الامتحان السريع للمحسوسات أكد للغزالي أن شكه فيها كوسيلة من وسائل الإدراك والمعرفة اليقينية - كان - شكا صحيحا . ذلك أن الحس قد يحكم على المتحرك بأنه ثابت واقف ، وعلى الكبير جدا بأنه صغير . ومن هنا فإنه لا يجوز للحس أن يكون طريقا لمعرفة العلم اليقيني .

وبعد أن تبين للغزالي أن الحس لا يمكن أن يكون طريقا لمعرفة العلم اليقيني وجدناه يحاول أن يختبر العقل فيقول قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة إلا بالعقلية التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما ، موجودا معدوما واجبا محالا . فقالت المحسوسات : لم تأمن أن تكون ثقتك بالعقلية كثقتك

بالمحسوسات ، وقد كنت واثقا بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر ، إذا تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك ، ولا يدل على استحالة . فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا ، وأيدت إشكالها بالنام وقالت : أما تراك تعتقد في النور أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ قيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة الى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم : اذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا عاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هي الموت إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الناس نيام اذا ماتوا انتبهوا" فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة الى الآخرة ، فاذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك "كشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد" فلما خطرت لى هذه الخواطر وانتدحت في النفس حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية . فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل ، فأعضل هذا الدواء ، ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظر دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ،

وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة .

وكانت تجربة المرض فرصة رائعة منحها الله لعبده العالم الباحث عن اليقين كي يعرف بنفسه طريق الأمان فقد قذف الله تعالى في صدره نورا كشف له حقيقة أكثر المعارف ، وكانت رحمة الله به واسعة حانية فهداه سبحانه وتعالى الى "نور على نور" ، النور الاول نور العقل والنور الثاني نور البصيرة وكشف الله تعالى عنه غطاء وشكه ، وأدرك أن من يهبه الله طريق الذوق والكشف يستطيع أن يصل الى العلم اليقيني الذي لا شك بعده . ولا يستطيع أن يصل الى مرتبة الكشف الا الواحد بعد الواحد ممن اختارهم الله وقذف في صدورهم نورا هو مفتاح المعرفة ودرج الامان النفسى والعقلى والقلبى .

يقول الغزالى "وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ، ولم يك ذلك بنظر دليل ، ولا ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة ولما سنل رسول الله تعالى عليه السلام عن "الشرح" ومعناه فى قوله تعالى "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام" قال : "هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب" فقيل : وما علامته ؟ فقال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود .

ويفرق الغزالى جيدا بين المعرفة عن طريق الحواس والمعرفة عن طريق القلب فيقول فى روعة وجمال لا حد له فى معارج القدس (١) «لو فرضنا حوضا محفورا فى الأرض ، احتمل أن يساق اليه الماء من فوقه بانهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب الى

أن يقرب من مستقر الماء الصافى ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر ، فلذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم الى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالملاحظات حتى يمتلئ علما . ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلو والعزلة وغض البصر ويعمد إلي عميق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله .

يقول الاستاذ ديبور (١) (لاشك أن الغزالى أعجب شخصية فى تاريخ الإسلام ومذهبه صورة لشخصيته ، فلقد أدرك الغزالى فى تصوفه أن المسألة الدينية أعمق مما أدركها فلاسفة عصره ، فقد كان هؤلاء الفلاسفة عقليين فى نزعتهم شأن فلاسفة اليونان ، فاعتبروا أن مقررات الدين ثمرة للقوة المتخيلة أو الوهم من جانب الشارع ، ورأوا أن دين المتدينين اما انقياد وطاعة عمياء لدى البعض ، أو هو ضرب من المعرفة فيه حقائق أدنى مرتبة من حقائق الفلسفة لدى البعض الآخر وجاء الغزالى فبين أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح وليس مجرد أحكام شرعية أو عقائد تلقى ، بل هو تجربة يحسها المتدين بروحه احساسا حيا ، ويمارسها عمليا) .

ومن هنا تكون الإرادة الحرة للإنسان المؤمن هى أخص سمات التجربة الذوقية للوصول الى المعرفة اليقينية . فالإيمان الذوقى يؤدى الى التحرر ، والعبودية لله وحده يعنى التحرر من عبادة العبيد ومن الطواغيت المختلفة ومعنى أنى اتذوق التجربة أنى أمارس إرادتى بحرية ومعنى أنى حر أنى موجود وجودا حقيقيا وكلما اقتربت من الله تعالى ازدادت حرى يقينا وإذا ما وصلت إليه كنت الحر على الحقيقة وكنت عبد الله المحب للحقيقي والواصل إلى اليقين .

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٢٧٢ .

٢- الشك بين الغزالي وديكارت :

الحقيقة أن الغزالي قد استفاد من شك المنهجي فائدة عظيمة أدت به إلى المعرفة اليقينية . وبهذا المنهج الشكى المتميز سبق الغزالي ديكارت صاحب الشك المنهجي المعروف فتجارب ديكارت "قوضت - شيئا فشيئا كل ما لديه من ثقة في الحواس كأداة للمعرفة الصحيحة ، إذ لاحظ كثيرا أن الأبراج التى تبدو للرائى مستديرة عن بعد ، تبدو فى نظره مربعة متى كان قريبا منها ، وأن التماثيل الضخمة التى تعلو قممها ، تبدو صغيرة الحجم متى نظر اليها من أسفل . بل لاحظ فى كثير من المناسبات أن احكامه التى يقيمها على حواسه الداخلية كثيرا ما تخطئ . وقد عرف من أشخاص يترت سيقانهم أو اذرعهم أنه كان يلوح لهم أحيانا أنهم يحسون ألما فى العضو المتور منهم ، فدعاه هذا إلى الاعتقاد بأنه لا يستطيع أن يكون على يقين من وجود ألم حقيقى يصيب عضوا فى جسمه حتى ولو أحس هذا الألم .

هذا وهناك سببين آخرين يبرران الشك فى المعرفة الحسية .

أولهما : انه ما أحس شيئا فى يقظته الا ظن أن فى وسعه أن يحسه أثناء النوم ، وهو لا يظن أن ما يحسه فى نومه صادر بالفعل عن أشياء خارجية لهذا لم يجد مبررا يسوغ له تصديق ما يحسه فى يقظته أكثر من تصديقه ما يحسه أثناء نومه .

وثانى السببين : أنه كان قد زعم أنه لا يعرف بعد خالقه - وهو ضامن الصدق فى تفكيره - ولهذا لم يجد ما يمنعه من الشك فى الطبيعة ، والظن بأنها هياته أو خلقتها بحيث يخطئ حتى فيما يلوح له أنه أصح الاشياء واصدقها (١) .

ومن خلال هذه الرؤية الديكارتية للشك نلتبس بسهولة للغاية مدى ما تحتويه من منهج الغزالي للوصول إلى المعرفة اليقينية ، فيكاد

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ط ٢ .

ديكارت أن يستخدم - الى حد كبير - نفس منهج الغزالي فى الشك من أجل تأسيس المعرفة الحقة

وبالإضافة الى وجود التشابه القوي بين الغزالي وديكارت فى مسألة المعرفة فإنه يوجد أيضا تشابه بينهما فى مسألة موقف العقل من الوحي .

فمن المعروف أن ديكارت (نحى حقائق الوحي عن مجال العقل لانها - فى رأيه - لا تدرك الا بمدد من السماء خارق للعادة) (١) .

وكما نعلم أن العقل عند الغزالي - قاصر على إدراك المسائل الالهية التى لا نعرفها الا من خلال خبر السماء الموحى لنبى معصوم . ومن هنا فإن الفلاسفة عنده لم يتمكنوا من إدراك شئ فى علومهم الإلهية لأن براهين الالهيات عندهم ليست قاطعة كبراهين الهندسيات .

وقد بين الغزالي بوضوح وجلاء أن الشك المنهجي طريق للإدراك والمعرفة اليقينية الأصيلة ، وجلى لنا حقيقة كبيرة وهى أنه من لم يشك لا يصل إلى المعرفة الحقة ولا يعرف اليقين التام .

كما أظهر لنا أن العقل الإنسانى لا يستطيع أن يدرج الحقائق الكبرى لقصوره عن ذلك ولأن فوقه قوة أعظم ولهذا حجم العقل فى استخدام المناهج الفلسفية ، وبين أن المنهج الذوقى الصوفى لما فوق العقل .

وقد انتهى ديكارت إلى ما أنتهى اليه الغزالي من قبله بعدة قرون من أن الناس تستمد الثقة فى قدرة الحواس والعقل نتيجة الإيمان بوجود الله تعالى وثقتهم فى رحمته . فديكارت يؤمن إيمانا قويا بأن الله تعالى لا يمنحنا آلات خادعة مضللة ، حقيقة أنها قد تعطينا معرفة ليست يقينية لكننا - أى الحواس والعقل - وسيلتان من وسائل المعرفة منحهما الله للإنسان ولا بد من استخدامهما استخداما مناسباً .

(١) المرجع السابق صفحة ٢٣٥ .

يقول ديكارت فى تأملاته^(١) كل ما تلقينته حتى اليوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء ، وأوثقها ، قد اكتسبته من الحواس . أو بواسطة الحواس ، غير أنى جربت هذه الحواس فى بعض الأحيان فوجدتها خداعة ، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الأطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة .

لكن قد يقال : لئن كانت الحواس تخدعنا بعض الأحيان فى أشياء صغيرة جدا ، وبعبءة جدا عن متناولنا فقد نفع على أشياء كثيرة أخرى ، لا نستطيع أن نشك فيها شكا يقبله العقل ، وإن كنا نعرفها بطريق الحواس .

مثال ذلك أنى ههنا جالس قرب النار ، ولايس عباءة المنزل ، وهذه الورقة بين يدى ، وأشياء أخرى من هذا القبيل .

وكيف أستطيع أن أنكر أن هاتين اليدين ، يداى ، وهذا الجسم جسمى ، اللهم إلا إذا أصبحت مثيلا لبعض المخبولين الذين اختلت أدمغتهم وغشى عليها بسبب الأبخرة السوداء ، الصاعدة من المرة ، فما ينفكون يؤكدون أنهم ملوك ، فى حين أنهم فقراء جدا ، وأنهم يلبسون ثيابا موشاة بالذهب والإرجوان ، فى حين أنهم فى غاية العرى ، أو يتخيلون أنهم جرار ، وأن لهم أجساما من زجاج .

ألا أنهم مجانين ، ولن أكون أنا أقل منهم إسرافا وخبلا إذا اقتديت بهم ونسجت على منوالهم .

ولكن ينبغي على هنا أن أعتبر أنى إنسان ، وإن من عادتى لذلك أن أنا ، وأن أرى فى أحلامى عين الأشياء التى يتخيلها هؤلاء المخبولين فى يقظتهم ، بل قد أرى أحيانا أشياء أبعد عن الواقع مما يتخيلون .

(١) التفكير الفلسفى للدكتور سليمان دينا رحمه الله رحمه واسعة ص ١١٢ : ص ٢١٤
تقلا عن التأملات لديكارت صفحات ٤٥ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .

كم من مرة وقع لى أن أرى فى المنام أنى فى هذا المكان ، وأنى لايس ثيابى وأنى قرب النار ، مع أنى أكون فى سربرى متجردا من ثيابى .

يبدو لى الآن أنى أنظر إلى هذه الورقة بعينين نائميتين ، وأن هذا الرأس الذى أحمله ليس ناعسا ، وأنى إنما أبسط هذه اليد وأقبضها عن قصد ووعى .

إن ما يقع فى النوم لا يبدو مثل هذا كله وضوحا وتمييزا ، ولكن عندما أطيل التفكير فى الأمر ، أتذكر أنى كثيرا ما انخدعت فى النوم بأشياء هذه الرؤى ، وعندما أقف عند هذا المخاطر أرى بغاية الجلاء أنه ليس هنالك أمارات يقينية ، نستطيع بها أن نميز بين اليقظة والنوم تمييزا دقيقا ، فيساورنى الذهول ، وإن ذهولى لعظيم ، حتى أنه يكاد يصل إلى اقناعى بأنى نائم .

وإذن فلنفرض الآن أننا نائمون وأن جميع هذه الخصوصيات من فتح العين وهز الرأس وبسط اليدين ، وما شابه ذلك ، إن هى الا رؤى كاذبة ولنذهب إلى أنه لم تكن أيدينا ولا أجسامنا بأكملها ، على نحو ما نراها ، لكن لا بد على الأقل من أن نسلم بأن الأشياء التى تتمثل لنا فى النوم ، كلوحات وصور ، لا استطاع تكوينها الا على غرار شئ واقعى وحقيقى .

وإذن فهذه الأشياء العامة على الاقل - كالعينين والرأس واليدين والجسم بأكمله - ليست أشياء متخيلة بل هى واقعية وموجودة .

فالحقيقة أن المصورين ، وإن كانوا يبذلون ما أتوا من مهارة فى تمثيل بنات البحر ، والتيوس الآدمية ، فى أشكال ، هى غاية فى الغرابة ، والبعد عن المألوف ، لا يستطيعون مع هذا أن يصفوا عليها أشكالا وطبائع جديدة كل الجدة ولكنهم إنما يصنعون مزيجا من أعضاء حيوانات مختلفة ، أو أن تيسر لهم من شطط الخيال مما يحملهم على أن يبتدعوا شيئا يبلغ من جدته أن أحدا لم ير قط له مثيلا ، ويكون عملهم

لذلك شيئا مختلفا أصلا ، وزائفا اطلاقا ، فلا بد على الأقل من أن تكون الألوان التي يؤلفونها منها حقيقية .

ويمكن أن يقال ، قياسا على السبب المتقدم : أنه لو صح أن هذه الأشياء العامة - أعنى الجسم والعينين والرأس واليدين وما شابه ذلك - يمكن أن تكون خيالية ، فإنه لا مناص مع ذلك من الإقرار بأن هنالك على الأقل أشياء أخرى أبسط وأشمل منها ، وهى حقيقية وموجودة ، ومن امتزاجها على نحو ما تمتزج بعض الألوان الحقيقية ، يتكون كل ما يقوم فى فكرنا من صور الأشياء ، سواء كانت هذه الصور حقيقية وواقعية ، أو مختلفة ووهمية .

ومع ذلك فإن معتقدا قد رسخ فى ذهنى منذ زمن طويل ، وهو أن هنالك إلها قادرا على كل شئ ، وهو صانعى وخالقى على نحو ما أنا موجود .

فما يدرينى لعله قضى بأن لا يكون هنالك أرض ولا سماء ، ولا جسم ممتد ، ولا شكل ولا مقدار ولا مكان ، ودبر مع ذلك أن أحس هذه الأشياء جميعا وإن تبدو لى موجودة على نحو ما أراها .

بل لما كنت أرى أحيانا أن غيرى يغلطون فى الأمور التى يحسبون أنهم أعلم الناس بها ، فما يدرينى لعله قد قدر ، أن أغلط أنا أيضا ، كلما جمعت اثنين وثلاثة ، أو أحصيت أضلاع مربع ، أو أطلقت حكما على شئ أسهل من ذلك لو أمكن أن نتصور شيئا أسهل منه .

ولكن لعل الله لم يشأ اضلالى على هذا النحو ، لانه سبحانه كريم رحيم .

ومن قبل "ديكارت" عرض الغزالى نفس المسألة ، ونفس الحل ، ونص الغزالى فى هذا الشأن قد ذكرناه من قبل . ومن الافضل أن نؤكد

مرة ثانية قال الغزالى :

(فانتهى بى طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات ، ومن اين الثقة بها ، وأقوى الحواس حاسة البصر ، وهى تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وانه لم يتحرك دفعه بغتة ، بل على التدرج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حاله وقوف .

وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على أنه اكبر من الارض فى المقدار .

هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته .

ويحتمل ان ديكارت قد قرأ النص اللاتينى للمتقذ وعرف رأى الغزالى ومنهجه الشكى من خلال احد معارفه أو اصدقائه بمن اطلعوا على فكر الغزالى واعجبوا به .

٣ - الغزالى وأصحاب الوضعية الحديثة :

لقد سبق الغزالى بفكره المبدع أصحاب الوضعية الحديثة .

فقد وافقوه فى مسألتين هامتين :

أولاهما : أن الغزالى وأصحاب الوضعية الحديثة يتفقان فى مسألة يقينية العلوم الصورية فالإثنان يعتبران العلوم الرياضية والمنطقية علوم يقينية .

والمسألة الثانية : ان الاثنين يتفقان فى اعتبار العلوم التى تقوم على التجربة والمعرفة التجريبية علوم احتمالية أو ترجيحية وليست العلوم التجريبية ترقى إلى مرقى اليقين فى العلوم الصورية .

وقد اختلف أصحاب الوضعية الحديثة مع الغزالي في مسألة واحدة وهي أنه يقول بالمعرفة الغيبية "الميتافيزيقا" كأساس من أسس المعرفة ويرد الغزالي المعرفة الغيبية إلى خبر السماء والوحى أى أنه يردها إلى خبر النبي المعصوم .

أما أصحاب الوضعية الحديثة فإنهم ينكرون الميتافيزيقا (المعرفة الغيبية) إنكارا تاما .

والغزالي كما أشرنا يعرف تماما أن المعرفة التجريبية عن طريق الحواس معرفة ترجيحية احتمالية لا ترقى إلى درجة اليقين الكامل وهو لا يرى ترابطا بين السبب والمسبب وأنه ليس ضروريا الاقتران بين الإثنين أى بين السبب والمسبب ولا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمنا لنفي الآخر ، فإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه وتعالى . ولنستمع إلى الغزالي وهو يقول هذه المعانى فى نص رائع بديع (١) "الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وبين ما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ؛ بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمنا لنفي الآخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، مثل الرى والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق و لقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، وإسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرا إلى كل المشاهدات المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف .

فإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه ، يخلقها على التساوى لا لكونه ضروريا فى نفسه ، غير قابل للفوت ، بل فى المقدور خلق الشيع دون الأكل ، وخلق الموت دون جز الرقبة ، وإدامة الحياة مع جز الرقبة . وهلم جرا الى جميع المقترنات .

(١) تهافت الفلاسفة للغزالي ج ١ ص ٤٤ و ص ٤٥ .

وأنكر الفلاسفة امكانه وادعوا استحالة .

والنظر فى هذه الأمور الخارجية عن الحصر يطول ، فلنعين مثالا واحدا هو الاحتراق فى القطن مثلا عند ملاقاته النار ، فإننا نجوز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق ، ويجوز حدوث انقلاب القطن رمادا محترقا دون ملاقاته النار وهم ينكرون جوازه .

وللكلام فى هذه المسألة ثلاثة مقامات :

المقام الأول : أن يدعى الخصم أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختبار ، فلا يمكنه الكف عما هو فى طبعه ، بعد ملاقاته لمحل قابل له .

وهذا مما ننكره ، بل نقول : فاعل الاحتراق - يخلق السواد فى القطن والتفوق فى أجزائه ، وجعله حُرَاقا رمادا - وهو الله تعالى ، اما بواسطة الملائكة او بغير واسطة ، فأما النار - وهى جماد - فلا فعل لها .

فما الدليل على أنها الفاعل ، وليس لهم دليل ، الا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاته النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عندها ، ولا تدل على الحصول بها ، وأنه لا علة له سواها . . . الخ

والواقع أن الغزالي يريد أن يقول أن لا فاعل فى الحقيقة إلا الله ولا يجوز نسبة اليقين فهو يقين الذى ما بعده يقين . ولهذا لا يجوز نسبة العلية إلا اليه سبحانه وتعالى فهو الفاعل على الحقيقة وهو العلة الأولى وهو كما يقول الغزالي قبل وجود العالم كان المريد موجودا ، والإرادة موجودة ، ونسبتها إلى المراد موجودة ، ولم يتجدد مريد ، ولم تتجدد إرادة ، ولا تجدد للإرادة نسبة لم تكن قبل .

ويقول الغزالي « أن الله يجوز أن يخلق ما يسمى علة بدون أن

ثانيا : اصناف الطالبين عند الغزالي

١- الغزالي . . . وعلم الكلام :

أراد الغزالي أن يبحث عن الحقيقة عند الفرق المختلفة فهؤلاء هم السالكون سبل الحق فأسرع بتتبع واستقراء ما عند هذه الفرق فابتدأ بالمتكلمين وثنى بالفلاسفة وثالث بالباطنية ورابع بالصوفية .

وعن مقصود علم الكلام يقول الغزالي " صادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودي ، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة .

يقصد الغزالي أن مقصود علم الكلام هو حفظ العقيدة على مسلم أخذ مبادئه من القرآن والسنة أى حفظهما من كل شكوك يضعها أعداء الإسلام حول مبادئ وأصول الدين . . هذا هو مقصود علم الكلام فهو علم لا يعتقد بصحة قضاياء إلا المؤمن بعقائده أصلا .

أما مقصود الغزالي فقد كان إدراك قواعد الدين ادراكا يقينيا واضحا يستند إلى العقل "وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ، فلم يكن الكلام فى حقي كافيا ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا "

ويقول الغزالي عن علماء الكلام (وكان أكثر خضوعهم فى استخراج متناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم) .

وكان الغزالي موضوعيا فى تفكيره حين قال "فلم يكن الكلام فى حقي كافيا ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا . نعم : لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة ، تشوق المتكلمون الى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يحو بالكلية

يخلق ما يسمى معلولا» (١) . وهذا ما أشار اليه فيما بعد مالبرانش (ت ١٦٧٧م) وهيوم (ت ١٧٧٦م) .

وقد قال هيوم "بأن التجربة ترينا فقط أن واقعة ما ينتج عنها أخرى دون أن يبين لنا ارتباطا ضروريا بينهما ، أى الارتباط الذى يراد بهذا التعبير علاقة السببية» (٢) . بل إن "مالبرانش" يصرح بأن السبب الحقيقى الذى الشئ به هو الله وحده ، فإن السبب الحقيقى فى رأيه هو ما يرى الفعل ارتباطا ضروريا بينه وبين ما ينتج عنه ، وهذا ما لا يراه العقل إلا لله الذى يكون عن إرادته وحدها كل شئ ، ولا يمكن أن يجعل الله هذه القوة لشئ مما خلق ، والا لتعددت الآلهة الخالقة . ومن ثم فإن الإنسان حين يحرك زراعية مثلا يفعل هذا بقوة ليست فى الحق منه (٣) .

ومن ناحية أخرى فإن الغزالي لا يرى تناقضا بين العقل والشرع ويؤكد على أهمية الجمع بين العلوم العقلية والشرعية فيقول فى إحيائه "وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن ، وهو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة . . فالداعى إلى فحص التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور . فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين ، فان العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية (٤) .

(١) تهافت الفلاسفة للغزالي صفحة ٢٧٨ .

(٢) عن الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله فى كتابه «بين الدين والفلسفة ص ١٩٤ .

نقلا عن تاريخ الفلسفة الحديثة بالفرنسية لهوفلنج .

(٣) المرجع السابق صفحة ١٩٤ .

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي ص ٣٠ .

ظلمات الخيرة في اختلاقات الخلق ولا أبعد ان يكون قد حصل ذلك لغيري بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ولكن حصولا مشوبا بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات والفرص الآن حكاية حالي ، لا الإنكار على من استشفى به فإن ادوية الشفاء تختلف باختلاف الداء وكم من دواء ينتفع به مريض ويتضرر به آخر .

ومن زاوية أخرى فإن الغزالي يعرف قيمة علم الكلام ويعده من العلوم التي هي لباب وجواهر . لعلوم القشور . فقد قسم الغزالي في كتابه «جواهر القرآن» العلوم الى علوم هي قشور وعلوم هي لباب . ومن العلوم القشور عنده النحو . وقسم علوم اللباب طبقتين ، أحدهما أقل قيمة من الاخرى ، وقسم الاقل قيمة إلى ثلاثة جعل القسم الثاني هو محاجة الكفار ومجادلتهم ، ومنه يتشعب علم الكلام قال : (١) (المقصود لرد الضلالات والبدع ، وازالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون ، وهذا العلم قد شرحناه على طبقتين سمينا الطبقة القريبة منها «الرسالة القدسية» والطبقة التي فوقها «الاقتصاد في الاعتقاد» .

ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام من تشويش المبتدعة .

وطبعي أن هذا يعني أن الغزالي يعرف دور علم الكلام في الدفاع عن العقيدة امام المبتدعة كما انه اعتبره من علوم اللباب لعلوم القشور . وقد ألف كتب كلامية متعددة من أهمها : «الاقتصاد في الاعتقاد» و «الدرة الفاخرة» .

ويتضح من ذلك أن الغزالي كان موضوعيا مع نفسه فهو مع ذلك انه قد ألف في علم الكلام فإنه يعترف بأنه غير واف موضوعه كما انه لا ينكر على من استفاد به فقد ينتفع بالدواء مريض ويستضره آخر .

ولا غرو في ذلك فقد كان الغزالي خبيرا يعلم الكلام يعرف سائر مسائله ومدى منفعته يقول في إحيائه «وأما منفعته فقد يظن أن فائدته

كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه (١) ، وهيهات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخييط والتضليل فيه اكثر من الكشف والتعريف ، وهذا اذا سمعته من محدث او حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس اعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا من خبر الكلام ثم قلاد بعد حقيقة الخيرة وبعد التغافل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود .

وقد أخذ الغزالي على علماء الكلام عدة اشياء فقال :

«إن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها ، ويشتمل عليها القرآن والأخبار ، وما خرج عنهما فهو محاولة مذمومة وهي من البدع وإما مشاغبة «مخاصمة» بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات ، وهذيانات تزدريها الطبائع ، وتقمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما يتعلق بالدين ولم يكن شئ منه مألوفاً في العصر الاول ، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع» . وضرب الغزالي لذلك مثلا :

فقال : «إن معرفة الله وصفاته وأفعاله لا تحصل من علم الكلام ، بل بكاد يكون الكلام حجابا عليه وامانعا منه ، وانما الوصول اليه بالمجاهدة» .

وفي كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» أنكر الغزالي على عوام الناس أن يشتغلوا بعلم الكلام ، وقال أن دين عوام الناس ينبغي أن يكون صافيا نقيا بعيدا عن تعقيدات الجدليين والمتكلمين ولهذا ينبغي إلجام العوام عن علم الكلام وهذا ما أكده أيضا في فيصل التفرقة .

يقول الغزالي : إذا تركنا المداينة ومراقبة الجانب ، صرحنا بأن الخوض في «الكلام» حرام لكثرة الآفة فيه إلا لأحد شخصين : رجل

وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريب وعظي ولا بخير نقلي ، والشخص الثاني كامل العقل راسخ القدم في الدين ثابت الايمان بأنوار اليقين ، يريد أن يحصل هذه الصفة ليداوى بها مريضاً إذا وقعت له شبهة ، وليفهم بها مبتدعاً إذا نبغ وليحرس بها - معتقده إذا قصد مبتدع اغواء . فإذا حصل هذه الصفة كان ذلك من فرض الكفايات ، والايمان الراسخ على الحقيقة هو ايمان العوام الحاصل في قلوبهم من الصبا بتواتر السماع .. وقام تأكده بلزوم العبادة والذكر فإن من تمادت به العبادة الى حقيقة التقوى وتطهير القلب من كدورات الدنيا ، وملازمة ذكر الله دائماً ، تحيلت أنوار المعرفة ، وصارت الأمور التي كان قد أخذها تقليداً عنده كالمعاينة والمشاهدة . و «الكلام» المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً ، مشرف على الزوال بكل شبهة» (١) .

هكذا نلاحظ أن الامام الغزالي يقول بأن الايمان عند العوام هو الذي يكون في قلوبهم عن طريق السماع والتواتر وأن كمال هذا الايمان يكون بكثرة العبادة والذكر حتى تتضح له أنوار المعرفة اليقينية ، ويصير ما أخذه قبل ذلك بالسماع والتواتر والتقليد مشاهدة .

وكان الإمام الغزالي نموذجاً للفكر الإسلامي الصحيح ولهذا كشف بجرأة عن التعصب الديني لدى بعض المتكلمين الذين اتهموا الفرق المخالفة لهم بالكفر والزندقة ونادى بأنه يجب على المسلمين أن يكفوا ألسنتهم عن أهل القبلة ما داموا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله وغير مناقضين لها .

وقال أنه لا يصح تكفير مسلم لأنه أول نصاً دينياً تأويلًا يخالف تأويل الآخر وأوضح إلى أن المبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل وضيق الأفق والتعصب المذهبي الأعمى . وقال الغزالي في فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة من أشد الناس

غلوا وإسرافاً ، طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ، ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التي حررناها فهو كافر ... فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده ... وجعلوا الجنة وفقاً على شذمة يسيرة من المتكلمين .. ثم جهلوا ما تواتر من السنة .. فليت شعري :: متى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن الصحابة رضی الله عنهم ، احضار اعرابي أسلم ، وقوله له : الدليل على أن العالم حادث : أنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث حادث .

وأن الله تعالى عالم بعلم ، وقادر بقدرة زائدة على الذات ، لا هي هو ، ولا هي غيره ، الى غير ذلك من رسوم المتكلمين .

... نعم لست أنكر انه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد اسباب الإيمان في حق بعض الناس ولكن ليس ذلك بمقصود عليه ، وهو أيضاً نادر ، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن ، فأما الكلام المحرر على وسم المتكلمين فإنه يشعر نفوس المستمعين بأنه فيه صيغة جدل ليعجز عنه العامى ، لالكونه حقاً في نفسه ، وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد في قلبه ، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ، ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال ، أو من بدعة الى غيره ولا عن مذهب الشافعى الى مذهب أبى حنيفة ، ولا على العكس .. ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات ، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام ويشغفل بالبحث والسؤال» (١) .

لقد بين لنا الغزالي في السابق مدى سعة أفقه واهتمامه بلب الدين وجوهره وروحه ، وكشف لنا عن حقيقة التعصب لدى بعض المتكلمين الذين يهتمون بالتقعرات اللفظية والشكلية بينما جوهر الدين أبسط

القول به .

ولكن إن كان في إظهاره مع العوام ضرر لقصور فهمهم بإظهاره بدعة .

وإن لم يكن البرهان قطعياً ، لكن يفيد ظناً غالباً ، وكان ذلك لا يعلم ضرورة في الدين كنفى المعتزلة الرؤية عن الله تعالى ، فهذه بدعة وليس بكفر .

وأما ما يظهر له ضرر ، فيقع في محل الإجتهد والنظر ، فيحتمل أن يكفر ويحتمل أن لا يكفر .

ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعى التصوف أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى اسقطت عنه الصلاة ، وأحلت له شرب الخمر والمعاصي ، وأكل مال السلطان .

فهذا ممن لا شك في وجوب قتله ، وإن كان الحكم بخلوده في النار محل نظر - وقتل مثل هذا ، أفضل من قتل مائة كافر ، إذ ضرره في الدين أعظم وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد . (١)

هذه هي روح السماحة الدينية الحققة عند حجة الاسلام الإمام الغزالي الذي لا يكفر مسلماً شهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله إلا من أنكر أمراً من أمور الدين معلوماً بالضرورة كالصلاة والزكاة والصوم والحج .

وكم أكد الغزالي على رحمة الله الواسعة فقد سبقت رحمته غضبه ، فقد جاء في حديث (أول ما خط الله في الكتاب الاول : انا الله ، لا إله الا أنا ، سبقت رحمتي غضبي ، فمن شهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة) :

(١) فيصل التفرقة للغزالي صفحة ١٩٥ : ١٩٧ باختصار .

وأوضح من هذه الأدلة والبراهين التي يستخدمونها بلا وعى صحيح ، فالدين يهتم بالجواهر لا بالرسم والعرض

وفي فيصل التفرقة أوضح أن أصول الايمان ثلاثة :

الايمان بالله ورسوله وباليوم الآخر ، وما عداه ، فروع وأنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة ، وهي أن ينكر أصلاً دينياً علم من الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق التواتر .

لكن في بعضها تخطئة ، كما في الفقهيات ، وفي بعضها تبديع ، كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة .

ويقول الغزالي « أن الخطأ في أصل الإمامة ، وتعيينها وشروطها وما يتعلق به لا يوجب شيئاً منه تكفيراً .

فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب الإمامة ولا يلزم تكفيره .

ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ، ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله ورسوله .

ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة فكل ذلك إسراف إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم أصلاً ، ومهما وجد التكذيب ، وجب التكفير ، وإن كان في الفروع

وأما الأصول الثلاثة . وكل ما لم يحتمل التأويل في نفسه ، وتواتر نقله ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض .

ومثاله : ما ذكرناه من حشر الأحياء ، والجنة والنار ، وإحاطة علم الله تعالى بتفاصيل الأمور ، وما يتطرق اليه من احتمال التأويل ، ولو بالمجاز - البعيد ، فتتظر فيه إلى البرهان : فإن كان قاطعاً ، وجب

٢ - الغزالي والفلسفة :

بعد معرفة الغزالي بحقيقة علم الكلام ، ولى شطره ناحية الفلسفة
عله يجد فيها غلته فأخذ يعب منها عبا حتى استطاع أن يعرف حقيقة
الفلسفة ، وآفاتا وغانلتها وقسم الفلاسفة إلى ثلاثة أقسام :

الدهريون : أصحاب القول بقدم العالم وهؤلاء زنادقة ملاحدة .

والطبيعيون : وهم الذين أكثروا بحثهم فى الطبيعة وعالم الحيوان
والنبات وتشريح الحيوانات فأروا عجائب صنع الله ، ولكنهم ذهبوا الى
القول بأن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة وأنكروا الحشر
والحساب ولهذا انهمكوا فى الشهوات نتيجة انكارهم الجنة والنار
وهؤلاء زنادقة ايضا .

والإلهيون : وهم المتأخرون منهم مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو
ويرى الغزالي انحراف فكرهم فوجب عنده تفكيرهم وتكفير شيعتهم من
المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى .

وبعد ذلك يحدثنا الغزالي عن اقسام علومهم ويقسمها الى ستة
اقسام :

رياضية : تتعلق بعلم الحساب والهندسة والفلك ، وهى علوم
برهانية دقيقة ولعل دقة براهينها حملت البعض على حسن الاعتقاد فى
الفلاسفة .

منطقية : وهى تختص بالنظر فى طرق الأدلة والقياس وشروط
مقدمات البرهان وهو القياس المؤلف من اليقينيات وكيفية تركيب
مقدمات البرهان وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه وان العلم اما
تصور (وهو ادراك الماهية بدون أن يحكم عليها بنفى أو اثبات) وسبيل
معرفة الحد ، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان ، وعلوم الفلاسفة
المنطقية ليس فيها ما ينبغى أن ينكر لأنه لا يتعلق بها شئ من الدين ،

بل قد تفيدنا فى معرفة صحيح الفكر من فاسده .

وأما علم الطبيعيات : فهو بحث فى العالم وما يحتويه من سموات
وأرض وأجسام مركبة كالحیوان والنبات والمعادن ، وليس من شرط الدين
انكار علم الطبيعة .

وأما السياسيات : فكلام الفلاسفة فيه يرجع إلى مصالح الناس
الخاصة بأمورهم الدنيا .

وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس
واخلاقتها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، ويرى أنهم أخذوها من
الصرفية .

وأما الالهيات : ففيها كما يقول الغزالي أكثر أغاليظهم وقد كفرهم
فى كتابه التهاافت فى مسائل ثلاث ، وبدعهم فى سبعة عشر مسألة .
فكفرهم فى قولهم ان الاجساد لا تحشر ، وان الله لا يعلم الجزئيات ،
وقولهم يقدم العالم وأزليته . (١)

(١) ليس كل فلاسفة الإسلام يقولون بحدوث العالم وليس كل فلاسفة الإسلام يقولون يقدم
العالم فالكندى فى رسالته فى وحدانية الله وتناهى جرم العالم يقول إن العالم حادث "فليس
الزمان متصلا بما لا نهاية له ، بل من نهاية اضطرابا ، فليست مدة الجرم بلا نهاية ، وانية
الجرم متناهية ، فيمتنع أن يكون جرم لم يزل ، فالجرم إذن محدث اضطرابا ، والمحدث محدث
المحدث إذن المحدث والمحدث من المضاف فلكل محدث اضطرابا عن ليس .
وهذا يعنى تنهى الجسم والتناهى يؤدى إلى القول بأن العالم مخلوق من العدم ولهذا فهو يقول
بحدوث العالم لا قدمه .

وفكرة تنهى الأجسام قال بها المعتزلة قبل الكندى عندما أرادوا البرهنة على حدوث العالم .
ولما كان الجرم متناهى عند الكندى فإن الزمان يكون بدوّه متناه "لأنه يقوم على الحركة
المتناهية .

ويعتبر الكندى أول فيلسوف مسلم قال بحدوث العالم بينما الفارابى وابن سينا قالوا بالقيض فى
خلق العالم متأثران بنظرية الفيض عند أفلوطين غير أن أفلوطين يقول بعقل واحد بينما
الفارابى وابن سينا يقولان بعشرة عقول ، وتسعة أنفس ، والقول بالقيض يرتب عليه القول
بقدم العالم .

ومن مفكرى الإسلام الذين تصدوا لمن قالوا يقدم العالم ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦) حيث رد
على من قالوا بأن العالم قديم وله فاعل يعتبر علة له وهو الله تعالى فيقول فى الفصل ان =

ويقول الغزالي فى منقذه «وأما ما وراء ذلك من نفهم الصفات ،
وقولهم أنه عليم بالذات لا بعلم زائد عن الذات وما يجرى مجراه ،
فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل
ذلك» .

ويبدو لنا الغزالي متسامحا نزيها حين يقرر أن لكثير من هذه العلوم
قوائد لعدم منافاتها للدين ويقول أيضا فإذا كان ذلك معقولا فى نفسه
مؤيدا بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغى أن
يهجر ويترك ؟ .

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرفنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه
خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق .

أما بالنسبة لتكفير الفلاسفة فى مسألتى قدم العالم وأن علم الله
اقتصصر على الكليات دون الجزئيات فقد تناول الغزالي حين مناقشتها فى
التهافت مناقشة فلسفية مسألة الزمان والمكان ولم يجعل بينهما فرقا
كالفلاسفة ، إذ هما عنده عبارة عن العلاقات بين تصوراتنا ، بينما
الفلاسفة يرون أن للعالم نهاية وأن المكان محدود ، ومن ناحية أخرى
يقولون أن الزمان لا ابتداء له ولا انتهاء .

ويقول الغزالي فى تهافته «كما أن البعد المكانى تابع للجسم فالبعد
الزمانى تابع للحركة ، وهو امتداد للحركة ، كما أن ذاك امتداد اقطار
الجسم .. فلا فرق بين البعد الزمانى الذى تنقسم العبارة عنه ، عن
الإضافة إلى «قبل» «وبعد» وبين البعد المكانى الذى تنقسم العبارة عنه
، عن الإضافة الى فوق وتحت» .

ومن ذلك النص نلاحظ أن الغزالي لم يجعل بين الزمان والمكان فرقا

= المعقول هو المنتقل من العدم إلى الوجود ، بمعنى من ليس إلى شئ ، فهذا هو المحدث .
ومعنى المحدث هو مالم يكن ثم كان . وهم يقولون أنه هو الذى لم يزل ، وهذا خلاف
المعقول .

كما يرى فلاسفة ، فالزمان والمكان عبارة عن العلاقات بين تصوراتنا أو
هما العلاقة بين الاجسام .

وهذا رأى يجعل الغزالي قريبا من نظرية «كانت» التى يقول
فيها : إن الزمان والمكان ليسا من المعانى الكلية ، بل هما عبارة عن
صور سابقة للتجربة تستعين بها على إدراك العالم الخارجى

والغزالي الذى هاجم الفلسفة يعد عندنا فيلسوفا دينيا كبيرا لأنه
كتب فى سائر موضوعات الفلسفة الدينية بعمق وأصالة وتجديد .

والموضوعات التى تخص فلسفة الدين يقول عنها فرجيليوس فيوم
Vergilius Ferm فى تعريفه لفلسفة الدين إن فلسفة الدين بحث فى
موضوع الدين من الناحية الفلسفية .. ومن مسائلها طبيعة الدين ،
ووظيفته وقيمه ، صدق دعواه ، الدين والاخلاق .. صلة الله بالانسان
من حيث الحرية والمسئولية ، الكشف الصوفى ، الصلاة واستجابة الدعاء
، قيمة الصور التقليدية فى التعليم والشعائر والعقائد والطقوس والوعظ
، مسألة طبيعة الاعتقاد والإيمان ، مسألة الألوهية ووجودها .. وإن
موضوع فلسفة الدين فى نظر الدوائر المحافظة ليس موضوعا لبحث
فلسفى حر وإنما هو فلسفة دين معين ، إنه حينئذ دفاع صريح أو مقنع
عن دين سبق الإيمان به .

ومن هذا المنطلق لتعريف فلسفة الدين نجد أن الغزالي تناول فى
دراسته كل موضوعات الفلسفة الدينية ولا ننسى أن مرجع وأساس
اهتمامات الغزالي كان مشكلة فلسفية عميقة هى محاولته الكشف عن
قضية اليقين فى المعرفة يقول الغزالي فى منقذه «فظهر لى أن العلم
اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا
يقارنه إمكان الخطأ والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من
الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين» .

وقد وجد اليقين فى الحقيقة الصوفية وإن اليقين نور يقذفه الله فى الصدر وهذا النور هو مفتاح أكثر المعارف فى نظره ، وهذا موقف فلسفى بديع يجعلنا نقول عنه - بلا أدنى شك - أنه فيلسوف دينى أصيل .

ولقد استطاع الغزالي أن يبين لنا أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح ، وليس مجرد أحكام شرعية أو عقائد تلقى ، بل هو أكثر من ذلك ؟ هو شئ يحسه المتدين بروحه إحساسا حيا ولا يحس كل إنسان بروحه ما يحس به الغزالي ، والذين لا يستطيعون متابعتة اذ يعرج ، على أجنحة التصوف فى مدارج السالكين متخطيا حدود المعارف التى يمكن اكتسابها بالتحصيل العادى لا محيص لهم عن الإقرار بأن محاولاته فى الوصول الى الله ، مهما كان فيها من مقامرة فى ميادين المجهول ، ليست أقل شأنا فى تاريخ العقل الإنسانى من مسالك فلاسفة عصره وإن بدت هذه المسالك أدنى إلى اليقين لأن اصحابها إنما ساروا فى بلاد قد كشفها غيرهم من قبل . (١)

والغزالي حين اراد أن يقوض الآراء الخاطئة فى الفلسفة إنما اراد هدمها لبنى قواعد الدين وقيمه على اسس من الحق قوية صحيحة .

وقد وضع الغزالي كتابه تهافت الفلاسفة ليهدم الفلسفة بمعول مفكر كبير ناقد ، له بصيرة ودرية بأراء الفلاسفة فأخذ يفتش عن الثغرات فى آرائهم بعين فاحصة وعقل حكيم وما كان هدفه هدم آراء الفلاسفة فى ذاتها لان بعض هذه الآراء موافق للدين وإنما كانت بغيته تفنيد مسلكهم العقلى وبيان مدى تهافتهم فمقصوده كما يقول فى تهافته تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم .

إنه يريد أن يبين للناس أن المعرفة عند الفلاسفة العقليين مصدرها

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام صفحة ٣٥٥ وصحة ٣٥٦ تأليف دى بور ترجمة د. أبو ريدة

العقل مع أن هناك طورا آخر فوق العقل لم ينتبه اليه الفلاسفة العقليون هو طور البصيرة ومع أن الغزالي اعتمد على العقل فى هدمه افكار الفلاسفة إلا أنه استطاع ان يكشف عن قدرات أعظم من العقل فى الكشف عن الحقائق هى قدرة البصيرة عند الخاصة من الناس ، كما كشف لنا بعمق حقيقة هامة هى أن العقل لا يستطيع أن يصل إلى مساتير الغيب وأنه عاجز عن أن يدرك ما وراء الطبيعة .

ثم أن هناك هدفا آخر من محاولته بيان تهافت الفلاسفة وهو قصده هدم الفلسفة عند العامة من الناس أيضا حتى لا يفتنوا بأراء الفلاسفة ويغفروا بما يهرفون ، فحاول هدمها وبيان الخطأ فى بعض آرائها حتى لا يقبل العامة عليها والأخذ بأفكارها .

ولقد اتسم الغزالي فى نقده الفلاسفة بالنزاهة العلمية والبعد عن التعصب لرأيه ، وكان يريد البحث عن الحقيقة فى جوهر آرائهم وبين مدى الخطأ والخطأ فيها .. يقول بلاسيوس : أن الغزالي حينما سمى كتابه «تهافت الفلاسفة» كان يريد ان يمثل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض على ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعا يشبه نور الحقيقة انخدع به فرمى نفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ مخدوعا بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما يهلك البعوض .

فكان الغزالي يريد أن يقول ان الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا اليها بلا أعمال روية فتهافتوا وهلكوا الهلاك الابدى (١)

ولعل الذى دعاه الى بيان تهافت الفلاسفة ما وجده من تناقض فى آرائهم بعضهم البعض فيقول لنا فى تهافته لقد رد ارسطا طاليس على كل من قبله ، حتى على أستاذه الملقب بأفلاطون الالهى ، ثم اعتذر عن

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية تأليف دى بور ترجمة د. أبو ريدة طبعة ٥ هامش صفحة ٣٢٣

مخالفة استاذة انه قال : افلاطون صديق ، والحق صديق ، ولكن الحق أصدق منه - وإنما نقلنا هذه الحكاية ليعلم أنه لا تثبت ولا إيقان لمذهبهم عندهم وأنهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين .

إن تناقض المذاهب وعدم يقينية آرائها دفع الغزالي الى هدمها ونقدها نقدا نزيها .

وقد سلك فى ذلك مسلك المفكرين المدركين لحقيقة المسألة التى يبحثونها - تمام الادراك . فهو عنده من العبقریات النادرة فى التاريخ الانسانى .

بل يعد الغزالي فى رأينا - كما ذكرنا من قبل - رغم أنه هاجم الفلسفة - فيلسوفا دينيا من الدرجة الاولى ... وقد ظهر ذلك واضحا جليا فى كتابه التهافت .. فحين شكك فى بعض آراء الفلاسفة وفندها ونقدها نقدا علميا وموضوعيا صحيحا فإنه قام بعمل فلسفى بعقلية ثاقبة وكأنه تفلسف رغما عنه ، ويرى بعض الفلاسفة أن (وظيفة الفلسفة لا تقوم فى وضع حلول للمشكلات) بل تقوم فى تنفيذ الحلول الموضوعية للمشكلات (١)

ويقول أستاذنا الدكتور سليمان دُنيا رحمه الله معلقا على هذا الرأى (٢) ومن عدم الانصاف ان يعتبر التشكيك والنقد اعمالا سلبية عديمة الفائدة انهما - فيما اعتقد (أى الدكتور سليمان دُنيا) اعمال تساعد على بناء وتشبيد من نوع آخر . فلو أن شخصا اعتقد ان طريقا معينة يمكن أن توصل الى الحق فكشف له انسان عن نقص فى هذه الطريق وأظهر له مثالبها وعيوبها ، فإن ذلك الانسان يكون قد صرف ذلك الشخص عن باطل ، ونبه الى ضرورة البحث عن طرق أخرى عساها تكون أليق بالغرض المطلوب .

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ١٢٦ طبعة ثانية .

(٢) فى مقدمة تحقيقه الرائع لكتاب تهافت الفلاسفة ط ٥ ص ٢٣ .

ان ارسطو حينما زيف نظرية المثل الافلاطونية ، لم يكن عمله هذا - وهو هدم لشيء يسمى فلسفة - عملا سلبيا ، وإن عمله هذا كان خطوة تمهيدية لا بد منها للوصول الى نظريته الجديدة التى ملأ بها فراغ النظرية التى استبعدها ، إذ لو لم ينقد نظرية المثل الافلاطونية - بل آمن بها - لم يكن هناك سبيل لكشف نظرية أخرى تحل محلها .

وإذا كان النقد داخلا هكذا ، فى نطاق الفلسفة فكتاب التهافت - إذن فلسفة .

ويحاول الدكتور دنيا رحمه الله أن يبين لنا أن الغزالي كان فيلسوفا بحق وهو يهدم الفلسفة فيقول (١) نعم ان هدف كتاب التهافت هو إظهار العقل بمظهر العاجز عن اقتناص الحقائق الالهية .

ولهذا يحاول الغزالي فيه أن ينتزع ثقة الناس من العقل كمصدر نتعرف منه المسائل الالهية ، ولكن الغزالي إذ يحاول ، تقييد سلطة العقل ، يتخذ من العقل نفسه مطية للوصول الى هذه الغاية ، فإذا عمل هذا هو محاولة عقلية لإثبات قصور العقل فى ميدان الالهيات ، وشهادة عقلية بأن للعقل حدا يجب الوقوف عنده .

فمن نظر الى الغاية من كتاب التهافت - تلك التى يصورها الغزالي نفسه بأنها انتزاع الثقة من الفلسفة - ورآه ، لهذا بعيدا من نطاق الفلسفة فهو - مضطر الى اعتبار وسيلته - تلك التى تقوم على استعراض مناهج الفلاسفة وادلتهم واستخدام العقل وحده للكشف عن قصورها ، وضعفها وركتها - عملا داخلا فى صميم الفلسفة . إنه عمل يمكن تصويره بأنه بحث فى طاقة العقل . وهل يمكن ان يكون عمل كهذا بعيداً عن مجال الفلسفة ؟

(١) المرجع السابق صفحة ٢٤ .

ولقد قال ارسطو قديما :

إن من ينكر الميتافيزيقا ، يتفلسف ميتا فيزيقيا

وقال :

(فَلْتَفَلْسَفْ إذا اقتضى الأمر أن نتفلسف ، فإذا لم يقتض الامر التفلسف وجب أن نتفلسف لنثبت أن التفلسف لا ضرورة له) .

ولقد قال حديثا بعض الفلاسفة الميتا فيزيقيين عن خصومهم من الفلاسفة الوضعيين :

(انهم الفلاسفة الذين يفاخرون بأنهم ليسوا فلاسفة إن موقفهم من إنكار الفلسفة موقف فلسفى لامحالة)

وعلى هذا القياس يكون الغزالى قد تفلسف وهو يهدم الفلسفة ، فالتهافت - اذن - ان لم يكن فلسفى الغاية فهو فلسفى الموضوع .

والحقيقة أن الغزالى يمثل عقلية الفيلسوف المسلم وإن قراءاته فى الفلسفة بعمق صبغت أفكاره بعقلية فلسفية متميزة وبحضرته فى ذلك ما قاله ابو بكر بن العربى صاحب الغزالى العظيم «شيخنا ابو حامد دخل فى بطون الفلاسفة ثم اراد ان يخرج منهم فما قدر» (١)

ويبدو لنا أن الغزالى فى فترة من حياته قد استوعب سائر المراجع والكتب المعروفة فى الفلسفة فى عصره ومنها كتاب «حجج برقلس فى قدم العالم» ولعل الغزالى وهو يفند آراء الفلاسفة فى المسائل الثلاثة المشهورة اعتمد على شرح يحيى النحوى النصرانى على مذهب ارسطو . وقد رد النحوى على القول بقدم العالم ردا على برقلس أحد القائلين بقدم العالم .

يقول البيهقى (١) فى كلامه عن يحيى النحوى "وأكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام رحمه الله فى تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوى" .

ويذكر هذا الكلام أيضا الشهر زورى "فى نزهة الارواح" (٢)

ويقول أن الغزالى أخذ ما أورده فى التهافت من كتب يحيى النحوى وهو يذكر من كتب يحيى الكتاب الذى رد فيه على برقلس .

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوى (٣) إن الغزالى فى هذا الكتاب إنما يعتمد على كتاب لفيلسوف يونانى افلاطونى محدث هو برقلس الافلاطونى ورد يحيى النحوى عليه . وهذا الكتاب هو كتاب حجج برقلس فى قدم العالم الذى كان من حسن حظنا أن اكتشفنا له ترجمة عربية قديمة قام بها اسحاق ابن حنين ونشرناها فى كتابنا «الافلاطونية المحدثة عند العرب» ص ٣٤ - ص ٤٢ القاهرة سنة ١٩٥٥ وقد وجدنا فيه الحجة الاولى من هذه الحجج . وقد فقدت فى أصلها اليونانى ، ولم تبق لنا إلا فى هذه الترجمة العربية الفريدة ، وهذه مأثرة عظيمة من مآثر التراث العربى على التراث اليونانى وهذه الحجج الثمانى عشر قد رد عليها يحيى النحوى الفيلسوف الاسكندرى ، بكتاب كبير ، يثبت فيه بأن العالم محدث وليس قديما ، وهذا الرد قد ترجم إلى العربية إذ ذكر القفطى أنه كانت لديه نسخة بالعربية طبعها من رد يحيى النحوى (القفطى نشره لبيروت ص ٨٩) . كما أننا نجد البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) ينقل عن كتاب يحيى النحوى هذا فى ثلاثة مواضع (صفحات ١٧ و ١١١ و ١١٤) وكذلك يذكره الشهر ستانى فى

(١) فى كتاب تاريخ حكماء الإسلام (تنمة اليتيمة) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٦٦ ص ١٧ نقلأ عن هامش ص ٣٣١ بتاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ترجمة وتعليق د/ أبو ريطة .

(٢) نزهة الأرواح مصور بمكتبة جامعة القاهرة ص ١٨٢ ، ص ١٨٣ .

(٣) فى بحثه بؤقر دمشق صفحة ٢٢٣ وصفحة ٢٢٤ .

(١) نقض المنطق لابن تيمية ص ٥٦ . طبعة القاهرة ١٩٥١ .

«الملل والنحل» (طبعة كيورتن ، ص ٣٣٣٨ - ٣٤٣) - فيورد ما سماه باسم «شبه برقلس في قدم العالم» ويقول أنه أفرد كتابا للرد عليها فضلا عن ابن الحمار المتوفى بعد سنة ٤٠٧ هـ فقد دافع عن رد يحيى النحوى برسالة صغيرة في أن دليل يحيى النحوى على حدث العالم أولى بالقبول من دليل المتكلمين أصلا - وقد عثرنا على هذه الرسالة ونشرناها أيضا ، وهذا يدل على مدى انتشار حجج برقلس ورد يحيى النحوى عليها في العالم الاسلامي فمن الطبيعي جدا ان يعرف الغزالي حجج برقلس ورد يحيى النحوى ، ولئن كان الغزالي لم يذكر اسم برقلس ولا اسم يحيى النحوى في كتابه «تهافت الفلاسفة» فإن هذا لا يدل على شيء لأن الغزالي لا يذكر مصادره وخصوصا هنا يعنيه أن يخفى مصدره لأنه يحيى النحوى ويحيى النحوى فيلسوف على أنه يكفي المرء أن يقرأ كتاب يحيى النحوى في رده على برقلس في قوله بقدم العالم ليكتشف في الحال أن الغزالي ينقل خلاصة ما قاله يحيى النحوى في رده ، ولا يكاد يضيف شيئا جوهريا إليه ، إنما الخلاف في العبارات والاصطلاحات وطريقة صياغة الحجاج .

فالحجة الاولى يوردها الغزالي (ص ٢٣ من نشرة بويج ، بيروت سنة ١٩٢٧) وهي قول القائلين بقدم العالم أنه يستحيل صدور حادث من قديم مطلقا هذه الحجة هي الحجة الثالثة من حجج برقلس ، وقد رد عليها يحيى النحوى بمثل ما أورده الغزالي باعتراضاته والزاماته والردود على الاعتراضات والإلزامات والحجة الثانية (ص ٥١ - ٥٢) من حجج القائلين بقدم الدهر - وهي الخاصة باستحالة التقدم بالزمان - هي بعينها الحجة الخامسة من حجج برقلس وقد رد عليها النحوى بما سيقوله الغزالي أيضا ، والدليل الثالث عند الغزالي (ص ٦٦ - ٦٧) يناظر الحجة الثانية من حجج برقلس ، وإن اختلفت العبارة إذ بدأت فكرة الممكن والواجب تدخل في الإلهيات بدلا من المثال والمثول أو الصورة وشبيهها المحاكى .

وبالمثل يقال عما أورده الغزالي للفلاسفة من حجج على أبدية العالم والزمان والحركة فلها كلها نظائرها في حجج برقلس ، خصوصا السابعة والثامنة والتاسعة ، وما أورده يحيى النحوى من ردود عليها .

ومن هذا نرى بوضوح أن الغزالي في «تهافت» إنما رد على آراء بعض الفلاسفة بآراء البعض الآخر ، وبعبارة أدق نراه رد على المشائين ومن شابههم مثل أبرقلس ، بكلام استعاره من فيلسوف تأثر بأفلاطون أكثر مما تأثر بأرسطو في الإلهيات ، فضلا عن أنه فيلسوف ذو دين ونعني به يحيى النحوى الذي كتب رده هذا سنة ٥٢٩ ميلادية كما يظهر من نص كلامه في المقالة ١٦ ف٤ (ص ٥٧٩ س ١٤ من نشرة Raabe)

ومن ذلك كله نستطيع أن نقول مطمئنين أن الغزالي اعتمد في رده على الفلاسفة القائلين بقدم العالم على كتاب يحيى النحوى وفيه دليله على أن حدوث العالم أولى بالقبول من حجج برقلس في قدم العالم .

والحق أن إسقاطات قراءاته في الفلسفة وخاصة فلسفة ابن سينا قد ظهر واضحا في أمرين تناولهما في فكره وهما مسألة النفس ومسألة المعرفة الإشراقية المتصلة بمسألة الفيض .

فالغزالي يكاد يحذو حذو ابن سينا في أمر النفس فهو يرى بأنها جوهر مخالف للجسم كما أخذ عنه أهم براهين إثبات وجود النفس كالبرهان الطبيعي وبرهان الإستمرار وبرهان الرجل الطائر وبرهان ابن سينا العقلي في إثبات روحانيتها .

أما نظرية الفيض التي رفضها الإمام الغزالي في كتاب «تهافت الفلاسفة» فإننا نجد بصماتها واضحة في كتابي «فيصل التفرقة» و«مشكاة الأنوار» ، فالغزالي مثلا في «مشكاة الأنوار» يرى أن النفس مقتبسة من آخر العقول التي يحتوى عليها عالم الملكوت ، كذلك يرى أن أنوار المعرفة تفيض على عقول البشر فبالحرى كما يقول في «مشكاة الأنوار» «أن يكون مقتبس الأرواح الأرضية من الأرواح العلوية

التي وصفها على وابن العباس رضى الله عنهما فقالا ، ان لله ملكا له سبعون وجه وفي كل وجه سبعون ألف قم وفي كل قم ألف لسان يسبح الله بجمعيتها .

وتجد في مشكاة الأنوار أنه يقول بأن أرواح الملائكة يفيض بعضها عن بعض وأن لها مقامات متدرجة ، تنتهى إلى نور الأنوار وهو الله وحده لا شريك له ، وهو النور الحقيقى وحده ، وكل الانوار مستعارة منه .

ولاشك عندنا أن قراءاته لفلاسفة الإسلام ووعيه بالفكر الفلسفى كانت له رواسب لا شعورية في كتاباته جعلته يحذو حذو الفلاسفة الذين نقدهم في تهافته ثم إن نظرية الفيض في عصره كانت مثارة باستمرار وكانت قد اختمرت تماما افكارها وعششت في عقول كثير ممن اطلعوا على هذه النظرية .

واننا نلاحظ أن الغزالي في «معارج القدس» و«المشكاة» و«الرسالة اللدنية» قد تأثر بالفكر الاشراقى ونظرية الفيض وقد وجدنا هذه الأفكار عند ابن سينا في رسالته «النبوات» حيث فسر الوحي والنبوة من خلال نظرية الفيض .

فابن سينا في رسالة النبوات يرى أن الوحي «إفاضة العقل الكلى على نفس النبى الذى ينتهى إليه التفاضل في الصور المادية وفيضان العلوم منه على لوح قلب النبى بواسطة العقل الفعال والملك المقرب هو كلامه ، والرسالة هى ما قيل من الأمور المفاضة على نفس النبى المسماة وحيا ، على أي عبارة استصوبت لصلاح عالمى البقاء والفساد علما وسياسة .. والرسول هو المبلغ ما استفاده من الإفاضة المسماة وحيا» .

ولهذا فنحن لا نشك في أن الغزالي قد تأثر الى حد كبير بنظرية الفيض وبالفلسفة الإسماعيلية وفلسفة ابن سينا وبخاصة من خلال رسالة الشيخ الرئيس عن «النبوات» بل إن الغزالي في الرسالة اللدنية يستخدم

ألفاظا استخدمها من قبله «إخوان الصفا» وفلاسفة الاسلام وبخاصة ابن سينا مثل تعبيرات «النفس الكلية» «العقل الكلى» «النفس القدسية» فالعقل الكلى هو المعلم والنفس القدسية هى المتعلم ، والنفس الكلى هو العلم ، وصور المعلومات تنتقش على صفحة النفس القدسية بدون واسطة ولا تعلم من خارج ، يقول تعالى «وعلمناه من لدنا علما» وقد تعلم آدم من غير معلم ، وهذا علم الأنبياء الذين يأخذون عن الله مباشرة بلا توسط ولا وسيلة . والعلم الغيبى الآتى عن الوحي أقوى وأكمل من العلوم المستفادة ، وصار علم الوحي كما يقول الغزالي إرثا للنبوة وحقا للرسل . ثم اغلق هذا الباب بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان علمه أكمل وأتم وأشرف ، لأنه حصل عن التعلم الربانى وعلمه شديد القوى .

والعلم الحاصل بالوحي سمي علما نبويا أما الحاصل بالإلهام فيسمى علما لدنيا ، فمن إفاضة العقل الكلى يتولى الوحي ، ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام فالوحي حلية الأنبياء ، والإلهام حلية الأولياء .

والنفس دون العقل والنوى دون النبى والإلهام دون الوحي .

الحق ان بذور الفكر الاشراقى ونظرية الفيض تبدو واضحة - كما قلنا في بعض كتابات الإمام الغزالي وبخاصة الرسالة الدينية والمشكاة ويبدو لنا ان ما يقرأه الإنسان بعمق وفهم عظيمين تظل آثاره داخل عقله ويظهر دون أن يدري فى بعض كتاباته . وهذا ما حدث مع شيخنا العظيم الإمام الغزالي .

فإن كانت بعض آرائه تجنح إلى الاتحاد فى "مشكاة الأنوار" إلا أن "إحياء علوم الدين" يعد المصدر الأساسى للتصوف السنى وهو الكتاب الهام الذى أثر فى سائر المتصوفين السنيين فيما بعد وهو المرجع والمعتمد فى التصوف السنى وفيه يهدم بعنف نظرية الاتحاد عند الحلاج .

ولهذا فالغزالي يعد بحق رائد التصوف السني في فكرنا
الإسلامي

٣- الغزالي . . ومذهب التعليمية الباطنية

بعد أن فرغ الغزالي من علم الفلسفة وبيانه أنه غير واف بفرضه لأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب استغرق في التعرف على التعليمية عقيدة الإسماعيلية فوجد أنهم يقولون (ان العقل لا يؤمن عليه الغلط ، حكما يصح أخذ حقائق الدين عنه) .

وهذا ما وصل إليه الغزالي عند اختباره الفلاسفة لكن التعليمية يأخذون مسائل الدين في شكلها اليقيني عن طريق المعلم الإمام المعصوم الذي يتلقى قضاياها عن الله .

يقول الغزالي في المنقذ من الضلال "ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم . فإذا قالوا هو ميت . فنقول "فمعلمكم غائب" . فإذا قالوا : "معلمنا قد علم الدعاة وبشهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فيقول "ومعلمنا قد علم الدعاة وبشهم في البلاد وأكمل التعليم" ، إذا قال الله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي" . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم ، كما لا يضر غيبته .

هكذا ناقشهم الإمام الغزالي وحاورهم حوارا عقليا رائعا إنهم يقولون أن الامام المعصوم يتلقى عن الله مباشرة ولكن حين سألهم عنه قالوا إن الامام المعصوم في الخفاء . فبقى قول الإسماعيلية : "كيف تحكمون فيما لم تسمعه ؟ أبالنص ولم تسمعه ؟ أم بالاجتهاد والرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن : أن نحكم بالنص عند وجود النص ،

وبالاجتهاد عند عدمه .

وبين لهم ان الرسول صلى الله عليه وسلم أباح الاجتهاد فيما لا نص فيه من كتاب وسنة . وقد بين الغزالي فساد مذهب التعليمية والباطنية في أكثر من رسالة وكتاب . مثل كتاب "المستظهرى" وكتاب "حجة الحق" وكتاب "الدرج" المرقوم بالجداول و"القسطاس المستقيم" .

ويقول الغزالي في المنقذ من الضلال "إن هؤلاء ، ليس معهم شيء من الشفاء المنجى من ظلمات الاراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ، طالما جاريناهم فصدقتناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلا عن القيام بحلها ، فلما عجزوا أحالوا على الإمام المعصوم ، وقالوا : "إنه لا بد من السفر إليه .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم ، وفى التبجح بالظفر به ولم يتعلموا منه شيئا أصلا .

وهم فى البحث عن المعلم المعصوم مخدوعون فلا حقيقة له فى الظاهر . يقول الغزالي "قلما خبرناهم نفضا اليد عنهم أيضا" .

وهكذا فند الغزالي آراء التعليمية وبين خطأ أساس معتقداتهم وضلال معتقداتهم فى الإمام المعصوم اذ لا معصوم سوى الأنبياء عليهم السلام .

لقد درّس حجة الاسلام علم الكلام والفلسفة وآراء التعليمية بعنق ليعرف عن علم ودراية الحقيقة فهو كما أشار فى المنقذ أنه "لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، وحين يتم له ذلك يمكن

أن يكون ما يدعيه من فساد حقا .

وهكذا انتهى به الأمر الى معرفة حقيقة الفرقة الرابعة وهى الصوفية .

٤- الغزالي والصوفية

الفرقة الرابعة وهى فرقة الصوفية ، منهجهم الذوق ، وحين عاشرهم الغزالي وجدهم أحسن الناس أخلاقا وأطيبهم عشرة ووجد عندهم اليقين الذى كان يبحث عنه كما سنوضح ذلك بإذن الله .

وقد بدأ الغزالي بمعرفة علمهم من خلال كتب التصوف مثل "قوت القلوب فى معاملة المحبوب" لابی طالب المكي ، والرعاية لحقوق الله عز وجل للمحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن أقطاب التصوف مثل الجنيد والشبلى والبسطامى وغيرهم .

ويقول الغزالي فى منقذه من الضلال عن الصوفية "إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، لغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوا بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها . وهى اول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وأخرها الفناء بالكلية فى الله " .

لقد ذاق الغزالي تجرد التصوف عن خبرة وممارسة ، وحين مارسها تجرد لها عن متع الحياة الزائلة ، وعرف أنه لا يستطيع أن يحكم على تجربة التصوف إلا من جرب أو ذاق وعرف فقال فى المنقذ "وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها ، فمن لم يرزق الذوق ، فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، إن أكثر معهم الصحة حتى يعرف ذلك بقرائن الأحوال يقينا ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان ، فهم القوم لا يشقى جليسهم ، ومن لم يرق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه فى كتاب "عجائب القلب ، من كتب إحياء علوم الدين" .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمان . فهذه ثلاث درجات ، "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" .

ولعل الذى جعله يتجه إلى التصوف بكليته أنه بدأ حياته العلمية لدى رجل صوفى هو الذى كفله وتربى على يديه مع أخيه أحمد ، بالإضافة إلى اطلاعه على كتب الصوفية ثم نوبة المرض الذى انتابته جعلته يشعر أن لا ملجأ إلا إليه سبحانه وتعالى فاتجه إليه بكليته خالصا صادقا فى حبه لله وزهده عن أعراض الدنيا .

وأىضا كان من أساتذة الغزالي الصوفى الزاهد ابا على الفضل ابن محمد بن على الفارمذى الطوسى (١) . وقد أخذ الغزالي عليه الطريق وعرف منه جواهر التصوف وحقيقة الحياة الروحية فى الإسلام .

ويوضح لنا الغزالي فى المنقذ أن أخص خواص الصوفية هو الذوق ولا يمكن الوصول إليه بالتعلم المجرد لأن الذوق فى اصطلاح الصوفية كما يقول هو "نور عرفانى" يقذفه الحق بتجليه فى قلوب أوليائه فيفرقون

(١) توفى الفارمذى سنة ٤٧٧ بطوس . وكان من تلاميذ الإمام القشبرى صاحب الرسالة القشيرية .

به بين الحق والباطل ، بغير حاجة إلى الاعتماد على كتاب أو نحوه ، كما يُدْرِك بالحال ، وهى عند الصوفية ، معنّى يرد على القلب من غير تبصّر ولا اجتلاب ، ولا اكتساب ، من طرب أو حزن ، أوقبض أو بسط ويزول الحال بظهور صفات النفس ، فإذا دام وصار ملكة ، سُمى مقاما ، فالأحوال مذاهب والمقامات مكاسب ، والأولى تأتى من عين الجود ، والثانية ببذل المجهود ، وأن لا سبيل إلى بلوغ هذه الخواص بغير العمل المقترن بالعلم .

إذن لقد تخلص الغزالي من الشك وعرف الحقيقة . . يقول لنا الغزالي "وكان قد ظهر عندي أن لا طمع لى فى السعادة الآخرة . إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والإتابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وإن ذلك لا يتم إلا بالإغراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعوائق" .

ورسم لنا الغزالي قام الطريق الصوفى بقوله "ان تخلو بنفسك فى زاوية ، تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب وتجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، مقبلا بذكرك على الله ، وذلك فى أول الأمر بأن تواطب باللسان على ذكر اله تعالى فلا تزال تقول : الله الله ، مع حضور القلب وادراكه ، الى ان تنتهى إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك لكثرة اعتياده ، ثم تصير مواظبا عليه ، إلى أن لا يبقى فى قلبك إلا معنى اللفظ ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيئات الكلمة ، بها يبقى المعنى المجرد حاضرا فى قلبك على اللزوم والدوام ، ولك اختيار إلى هذا الحد فقط ولا اختيار بعد ذلك ، إلا فى الاستدامة لدفع الوسوس الصارفة ، ثم ينقطع اختبارك فلا يبقى لك إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء . . . فهذا منهج الصوفية وقد رد الأمر فيه إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط" .

وهكذا انتهى الغزالي إلى أن الكشف الصوفى أو الإلهام هو أبرز مصادر المعرفة اليقينية بعد الوحى . وهو عطاء يفيض به الله تعالى على قلب الصوفى العارف إذا ما كان العارف يملك الاستعداد لهذا الكشف الوهبى العظيم . وهذه المعرفة القلبية الكشفية تكون مصحوبة ببرد اليقين ، ونور اليقين عند المؤمنين والراسخين فى العلم ، وهذا النور الفياض يغمر القلب فيتضح معه كل شئ "وهذا النور من الوضوح بحيث أنه قد يخفى لشدة جلالة ، وقد يغفل عنه العارف لإشراق ضيائه" .

فمن طريق الكشف الصوفى أو الإلهام يكون العلم اليقيني وهو الذى قال عنه الغزالي - انه ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب .

وتصوف الغزالي يمثل التصوف السنى فى الاسلام ، فلقد رفض نظريات الحلول والاتحاد عند الحلاج التى نتج عنها فيما بعد فكرة وحدة الوجود عند ابن عربى فى القرن السابع الهجرى ، وبين الغزالي ان العبد عبد والرب رب ، ولن يكون أو يصير أحدهما الآخر البتة .

ويقول الغزالي "إن من طلب غيره (أى غير الله) فقد عبده" (١) .

ورفض الغزالي رفضا تاما فكرة ان الله روح العالم أو أنه العالم فيذكر عند بسط فكرة ان الله خلق آدم على صورته : "إن آدم أنموذج ولا يخلو إلا أنموذج عن محاكاة لما هو أنموذج عنه ، فالروح الإنسانى يحاكي الله فى ذاته وصفاته وأفعاله فهو يدبر البدن كما يدبر الله العالم ، والجسم الإنسانى عالم صغير فى مقابلة العالم الكبير . . كل جزء منهما له نظير فى الآخر . . هل الله روح العالم ؟ كلا أما الدليل فهو أن الله خلق العالم بإرادته واختياره وهو الحافظ له ، والقادر على افئاته باختياره وإرادته ، وإلا لما كان هناك معنى للخلق ولا للاختيار ولا للإرادة (٢) .

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٢٢ .

(٢) المنقذ ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

إن الغزالي يريد أن يؤكد على حقيقة طالما أشار إليها وهى أن العبد عبد والرب رب .

ويحاول الغزالي من منطلق التسامح الذى اتسم به مع الصوفية أن يعتذر عن شطحات بعضهم فيقول :

"فليس للعارف أن يزعم إدراك الذات الإلهية فضلا عن أن يزعم الاتحاد بها أو حلولها فيه ، وإذا كانت المشاهدة أسمى مرتبة من الاستدلال ، فإنها ليست كشفا تاما يزول معه كل حجاب ، وإذا وجدنا متصوفا يدعى الحق (يقصد العلاج) وجب تأويل قوله : اما على أنه يعترف بأن لا وجود له إلا بالحق ، وهذا التأويل منه بعيد لان اللفظ لا يبنى به ، ولأن كل شئ سوى الحق فهو بالحق ، واما على أن صاحب الذوق يغفل عن ذاته فيكون همه الحق وحده بحيث لا يكون فيه متسع لغيره ، ويقول الغزالي إن هذا التأويل العقلى وحده هو الذى يمكننا من تفسير وفهم شطحات الصوفية "لان من يستغرق شئ فينسيه كل شئ سواه يجوز له لا على سبيل الحقيقة أن يقول أنه هو هو" (١) .

والغزالي يريد أن يعتذر عن شطحات الصوفية لأن ما يقولونه مجرد وهم وليس بالحقيقة أبدا . . ويوضح لنا الغزالي ان المتصوفة الخالص من المسلمين لم يذهبوا فى التعبير عن استغراقهم التام فى الحق إلى حد القول بالحلول والاتحاد . والذين يزعمون أن ما يقولونه هو الحقيقة فهو باطل وهو مجرد استغراقات أو نوع من القرب "يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الاتصال وكل ذلك خطأ" ، فالله يتجلى ظاهرا من جهة افعاله ، ولكنه يظل باطنا لشدة ظهوره ، وعندئذ لا يظهر إلا للعقل لا للحواس ، وإذا فهم الذوق هذا الفهم لم يكن هناك ما يدعو العقل لإنكاره . . فإن من ليس له قدم راسخة فى المعقولات ربما لم يميز أحدهما عن الآخر فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تلاءم فيه من حليه

الحق ، فيظن أنه هو فيقول أنه الحق .

ويوضح لنا الغزالي مصدر القول بالحلول فيقول ان مصدره المسيحية (إنه أى الحلول لا يتصور بين عبيدين فكيف يتصور بين العبد والرب والعبد عبد والرب رب . . أليس معنى الحلول هو انطباق جوهر على جوهر أو جسم على جسم أو عنصر في جوهر) وهذا يستحيل عقلا نسبته إلى الصلة بين الذات الإلهية . . ونفس العارف "مهما بلغت هذه النفس من الصفاء ، والتجرد عن كل ما يشغلها عن الحق ، ثم اذا كانت النفس حادثة ولا وجود لها إلا بإرادة خالقها ، فكيف يتصور عقلا أن تكون هى هو .

وإذا نحن سلمنا بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحدة ، فكيف لا نسلم به لجميع النفوس ، وعندئذ يصبح العالم كله آلهه . فمن المحال إذن أن يحل الله فى النفوس أو أن ينطبع فيها انطباع الخمر فى اللبن فان ذلك من صفات الأجسام (١) .

وينفى الغزالي فكرة الاتحاد ويهدمها من أساسها هدمًا عقليا عن طريق القسمة الجدلية التى تبرهن على استحالة كل حالة منها فيخرج بنتيجة كبرى هى أن الاتحاد بين ذاتين أمر مستحيل لان العقل لا يمكن ان يقبله . . لانه فى حالة الاتحاد بين ذاتين "اما أن تظل كل منهما قائمة بنفسها وإذن فليس هنا اتحاد . ومثال ذلك أن الإرادة والعلم والقدرة توجد فى ذات واحدة ، ولكنها ليست متحدة ، لأنه يبقى من المقرر أن الإرادة غير العلم غير القدرة . وإما أن يقال ربما تفنى إحدى الذاتين وتظل الأخرى موجودة وهذا باطل" . فلا يمكن فى هذين الاحتمالين الحديث عن أى نوع من الاتحاد لأنه لا يمكن ان يحدث اتحاد بين موجود ومعدوم . اما الاحتمال الثالث وهو القول بانعدام الذاتين معا فهو فاسد من أساسه لأن حديثنا هنا عن الانعدام ، وليس حديثا عن

يومه إلا قال فى غده ، لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يُسْتَحْسَنُ ، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

ثم يبقى أن : أحمدك ربى كثيرا على سابغ نعمائك وعطاياك على ، وإنى أسألك الهداية والتوفيق . وأسألك الشكر على العافية والغنى عن الناس وأسألك الجنة يارب العالمين . . وأسألك قبول هذا العمل وأن تجعله خالصا لوجهك الكريم . وأسألك الشهادة فى سبيلك والموت فى المدينة المنورة فقد روى البخارى أن عمر قال « اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى حرم رسولك الأمين » اللهم آمين .

وختاما : فإن كنت قد وفقت فله تعالى المنّة والشكر ، وإن أكن قصرت فإن الكمال لله وحده ، ومنه أستمد العون لدرك ما فاتنى ، وهو الموفق والهادى سواء السبيل

العبد الفقير الى الله تعالى

عامر النجار

وعن طريق القسمة الجدلية يصل بنا الغزالى الى هذه النتيجة الهامة وهى "أصل الإتحاد إذن باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال : هو هو ، لا يكون الا بطريق التوسع والتجاوز للاتق بعادة الصوفية والشعراء ."

ومن ثم ينبغى علينا أن نؤول ما نسب مثلا إلى أبى يزيد البسطامى من أنه قال : "سبحانى ما أعظم شأنى" فنقول أنه يتلفظ بهذه العبارات ليعبر بها عن عظمة الله وجلاله ، مثلما ينطق المرء بقوله تعالى "لا إله إلا أنا فاعبدنى" فليس من المعقول أن يقول هذه الألفاظ متصوف طالبا من الناس أن يعيدوه .

هذا ويمكن تأويل قول البسطامى "سبحانى ما أعظم شأنى" تأويلا آخر وهو أنه فى حالة المشاهدة شاهد جمالا وكمالا فى نفسه . فقال عن قدس نفسه سبحانى ، كما شاهد عظم شأنه بالنسبة للآخرين فقال "ما أعظم شأنى" مع الاعتراف بالفرق الجوهرى بينه وبين قدس الله تعالى وعظم شأنه سبحانه وتعالى . ثم أنه لم يقل مثل هذه العبارة إلا وهو فى حالة جذب ووجد وسكر ، لا فى حالة صحو .

ويؤكد الغزالى على أنه من المهم للغاية أن يحفظ الصوفى لسانه فى حال صحوه ولا يتلفظ بمثل هذه العبارات الموهمة بالإتحاد الموحية بالمائلة بين الله تعالى والعبد .

يقول الغزالى فى المقصد الأسنى "ومن صدق بمثل هذا المحال فقد انخلع عن غريزة العقل ، ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم ، ومن لم يفرق بين ما أحاله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخس من أن يخاطب فليترك وجهه ومن ذلك كله نستطيع ان نقول إن تصوف الغزالى كان يمثل التصوف السنى فى الاسلام" .

ويعد . .

فلازلت أردد قول القائل "إنى رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا فى

فهرست موضوع الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الاول : الغزالي وتلاميذه وأهم كتبه	١ - ٧٥
أولا : أعضاء على الغزالي وتلاميذه	
١- تعريف الغزالي	١ - ٩
٢- تلاميذ الغزالي	١٠ - ١٤
ثانياً من مؤلفات الغزالي	١٥ - ٧٥
مدخل إلى وسائل البحث عند الغزالي	١٥ - ١٨
١- كتاب إحياء علوم الدين	١٩ - ٤٢
٢- كتاب مشكاة الأنوار	٤٢ - ٦٨
٣- كتاب كيمياء السعادة	٦٨ - ٧١
٤- كتاب المضمون به على غير أهله المنسوب خطأ إلى الغزالي	٧١ - ٧٥
المبحث الثاني : مشكلة المعرفة اليقينية عند الغزالي	٧٦ - ١٢١
أولا : منهج الشك عند الغزالي	٧٦ - ٩٠
١- البحث عن الحق واليقين عند الغزالي	٧٦ - ٨١
٢- الشك بين الغزالي وديكارت	٨٢ - ٨٧
٣- الغزالي وأصحاب الوضعية الحديثة	٨٧ - ٩٠
ثانياً : أصناف الطالبين عند الغزالي	٩١ - ١٢٠
١- الغزالي . . . وعلم الكلام	٩١ - ٩٧
٢- الغزالي . . . والفلسفة	٩٨ - ١١٢
٣- الغزالي . . . ومذهب التعليمية الباطنية	١١٢ - ١١٤
٤- الغزالي . . . والصوفية	١١٤ - ١٢١

من مؤلفات الدكتور عامر النجار

- الطهارة في الإسلام طبعة ثالثة دار المعارف بالقاهرة
- الطرق الصوفية في مصر طبعة رابعة دار المعارف بالقاهرة
- التصوف النفسى طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة
- فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية طبعة ثانية دار المعارف بالقاهرة
- الخوارج . . عقيدة . . وفكر . . وفلسفة طبعة ثانية دار المعارف بالقاهرة
- علم الكلام طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة
- نظرات . . فى فكر الغزالي طبعة أولى نشر "الصفاء" بالقاهرة
- كتاب الصلاة طبعة ثانية دار المعارف بالقاهرة

تحت الطبع

- الإباضية . . عقيدة . . وفكر . . وفلسفة .
- الزكاة فى الإسلام .